

تأليف

محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم

توزيع
دار طيبة - مكة المكرمة
ت ٥٥٨٩٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبْصِيرُ أُولِي الأَلْبَابِ

بِبِدْعَةِ تَقْسِيمِ الدِّينِ إلى قِشْرٍ وَلُبَابٍ

● الطبعة العاشرة ●

○ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ○

توزيـــــع

دار طيبة - مكة المكرمة ت : ٥٥٨٩٠٢٧

الرياض ت : ٤٢٥٣٧٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، سيما عبده المصطفى .

وبعد :

فقد طُبعت هذه الرسالة من قبل ملحقة بكتاب « أدلة تحريم حلق اللحية » باعتبارها امتدادًا لمادته ، وقد نصح كثير من الفضلاء بإصدارها منفردة تعميمًا للفائدة ، فى وقت ارتفعت فيه نعرة تقسيم الدين إلى قشر ولباب ، يعقبها المناداة بنبذ ما أسموه قشرًا بدعوى الاهتمام باللب ، مما يعنى تزهيد الناس فى التمسك بهدى رسول الله ﷺ ، ذلك الهدى الذى سَوَّلَتْ لهم شياطينهم ، وطوَّعت لهم أنفسهم أن يسموه تطرفًا ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا** ﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ **واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ ، ويقول عز وجل : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ .

وحينما نردد بين الحين والحين شعارنا المقدس : « خير الهدى هدى محمد ﷺ » فإننا نعنيها ، ونستحضر كلما رفعنا عقيرتنا بها أنها تعنى الاعتزاز بهذا الهدى ، والاستعلاء به على كل طريقة تخالفه أو تنحرف عنه .

إن التمسك بهدى رسول الله ﷺ الظاهر والباطن ما هو إلا مرآة تعكس ما يعمر قلوب متبعيه ﷺ من حبه وتعزيره وتوقيره ، وما يتنادى به بعض المرجفين لا يعدو أن يكون جهلًا بالشرع ، أو ضربًا من العبث والتحلل من البعض ، أو سوء نية وخبث طوية من البعض الآخر ، وقانا الله وسائر المسلمين شرهم .

وهذه الرسالة ترد على الفريقين كل بحسبه، وتبين أن مصطلح « القشر واللب » ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قِبَلِهِ العذابُ ، ولذا انخدع به بعض الطيبين الذين ابتلعوا الطعم ، فاستحسنوه ، وصاروا يروِّجون له ، دون أن يدركوا أنه قناعٌ نفاق قبيح، وأنه من لحن قول العالمانيين الذين يتخذونه قنطرة يهزبون عليها من الالتزام بشرائع الإسلام دون أن يُخْدَش انتماؤهم إليه ، نعم تتوقف القضية عند حسنى النية من المسلمين المخلصين عند نبذ ما أسموه قشرًا ، لتركيز الاهتمام على ما دَعَوْه « لبًّا » ، ولكنها عند المنافقين الحريصين على اقتلاع شجرة الإسلام من جذورها ، مجرد مدخل إلى نبذ اللب والقشر معًا ، تمامًا كما يرفعون شعار الاهتمام « بروح النصوص وعدم الجمود عند منطوقها » ، ومع أن هذا كلام طيب إذا تعاطاه العلماء ، وطبَّقه الأسوياء ، لكنه خطير إذا رفعه أصحاب العاهات الفكرية والنفسية ، والمشوهون عقديًّا ؛ إذ يكون مقصودهم حينئذ هو « إزهاق » روح النص ، بل اطِّراح منطوقه ومفهومه ، أو توظيفه – بعد تحريفه عن مواضعه – لخدمة أهدافهم الخبيثة[1].

إنهم يريدون دينًا ممسوخًا كدين الكنيسة العاجزة المعزولة عن الحياة ، يسمح لأتباعه بكل شيء مقابل أن يسمحوا له بالبقاء حيًّا على هامش الحياة ، محبوسًا فى الأقفاص الصدرية ، لا يترك أى بصمة على واقع الناس ومجتمعاتهم .

إنهم : **﴿ يريدون أن يُطْفِئُوا نُورَ الله بأفواهِهِمْ وَيَأْبَى الله إلَّا أن يُتِمَّ نورَهُ ولو كَرِه الكافِرون * هو الذى أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدين كُلِّهِ ولو كَرِه المشركون ﴾**[2] .

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[3] .

والحمد لله رب العالمين .

الإسكندرية فى الجمعة ١١ شوال ١٤١٣ هـ الموافق ٢ أبريل ١٩٩٣ م

---

(١) انظر : « العقلانية هداية أم غواية » للأستاذ عبد السلام بسيونى ص (٨٧ – ٩٤) .

(٢) التوبة : (٣٢ – ٣٣) .

(٣) يوسف : (٢١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلْم كافَّةً** ﴾[1].

قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله :

(يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك)[2] اهـ .

ثم نقل عن ابن عباس وغيره أنهم قالوا : ﴿ **ادخلوا فى السلم** ﴾ يعنى : الإسلام ، ﴿ **كافة** ﴾ يعنى : جميعًا ، وقال مجاهد « أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر » ، وقال الألوسى رحمه الله :

(والمعنى : ادخلوا فى الإسلام بكليتكم ، ولا تَدَعُوا شيئًا من ظاهركم وباطنكم إلا والإسلام يستوعبه بحيث لا يبقى مكان لغيره)[3] اهـ .

وقال أيضًا : (وقيل : الخطاب للمسلمين الخُلَّصِ ، والمراد من « السِّلْم » شعب الإسلام ، و « كافة » حال منه ، والمعنى « ادخلوا » أيها المسلمون المؤمنون بمحمد ﷺ فى شعب الإيمان كلها ، ولا تُخِلُّوا بشيءٍ من أحكامه) اهـ .

---

(١) (البقرة : ٢٠٨) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (١/٣٦١) .

(٣) « روح المعانى » (٢/٩٧) .

۞ تقسيم الدين إلى قِشْرٍ ولُبٍّ بِدْعةٌ وضلالة ۞

نبغ فى هذا العصر أقوام تلقوا هدى الإسلام من واقع حياتهم أولًا ، ولم يحيوا فى جو علمى يتأثرون به فى حكمهم على الأمور ، فراحوا يحتجون ببعض النصوص لإثبات عكس ما وضعت له ، ويسمون الأشياء بغير اسمها .

ويتضح هذا جليًّا فيمن لا يهتمون ببعض الشرائع الظاهرة التى يسمونها (شكليات) أو (قشورًا) ويدندنون فقط حول التمسك (باللباب) .

يقول الشيخ محمد إبراهيم شقرة حفظه الله ما ملخصه :

[لقد صارت هذه المقولة المغرضة شعارًا له أنصار ودعاة وأقلام وصحف ومناهج وعقول .

– وبالرغم من هذا الحشد الذى التف حول هذا الشعار فإننا لم نجد حتى الآن ترجمة واضحة له ، أو تحديدًا دقيقًا لمعناه ، فإن القائلين بهذه المقولة الحادثة ، رغم تأكيدهم عليها ، والإكثار من الحديث عنها ، فإنهم لم يضعوا تعريفًا أو حَدًّا لما سموه قشرًا ، أو لما يسمى لبابًا ، ينتهى إليه الراغب فى العمل باللباب وحده دون القشر .

وما ذاك إلا لأنها مقولة حادثة مبتدعة ، لم يعرفها سلف الأمة ومن تبعهم بإحسان ، وإنما هى من نتاج أفكار المنهزمين المستعبدين للشرق أو الغرب .

● وإذا حاولنا أن نضع حدًّا تقريبيًّا ، فلنقل :

« اللباب فى المأمورات الشرعية هو ما يدخل تحت الحكم الواجب ، والقشر هو ما جاوز دائرة الحكم الواجب ، واللباب فى النواهى هو ما يدخل تحت الحكم الحرام ، والقشر هو ما لم يتناوله الحرام الصريح فى النواهى »
وعلى ذلك : فالقشور فى المأمورات : كل مندوب أو مباح ، وفى النواهى : المكروهات ، وبناءً عليه يجتمع لدينا من القشور ما يزيد على نصف الدين ،

ويبقى من لبابه أقل من النصف ، فهل يعقل أن ندع أكثر من نصف الدين قشورًا لنأخذ أقل من نصفه لبابًا ؟

وأين سيضعون المسائل المختلف عليها بين الواجب والمندوب كصلاة الوتر مثلًا ؟

● أضف إلى ذلك أنه ليس شيء من القشور أو اللباب – على حد تعبيرهم – إلا ويدخل تحت حكم الله وخطابه المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل التخيير أو الطلب تركًا أو فعلًا ، وبالتالى لا يصح تسميته قشرًا على سبيل الاصطلاح الذى افترضناه ، ولا على سبيل التهوين والغض من شأنه .

لقد أنزل الله سبحانه دينه على نبيه ﷺ ليبنى به الإنسان المسلم ، فيسعد به فى الدنيا والآخرة ، ولا يخفى على ذى عقل أن كل أمر ونهى من أوامر هذا الدين ونواهيه تسهم إسهامًا فعَّالًا فى بناء هذا الإنسان ، سواءً أكانت من المندوبات أم من المباحات أم من الواجبات ، وسواءً أكانت من المكروهات أم من المحرمات ؛ لأن جميع هذه الأحكام هى شعب الإيمان التى قال فيها عليه الصلاة والسلام : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إلٰه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[1]، فأيُّما شعبة نقصت منها كانت نقصًا من الإيمان ، وأيما شعبة التزمها المسلم كانت زيادة فى إيمانه ؛ لأن الإيمان يزيد وينقص بالقول والعمل ، وهذا من شعائر أهل السنة ، وهو مذهب السواد الأعظم من الأمة، قال رسول الله ﷺ: « لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإسلام عُرْوَةً عُرْوَةً، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها : فأولهن نقضًا الحُكْمُ ، وآخِرُهُنَّ

---

(١) البخارى فى الإيمان : باب أمور الإيمان (١/٤٨ ، ٤٩) : بلفظ : « الإيمان بضع وستون شعبة » ، ومسلم فيه: باب بيان عدد شعب الإيمان رقم (٣٥) ، وأبو داود فى السنة : باب فى رد الإرجاء رقم (٤٦٧٦) ، والترمذى فى الإيمان ، والنسائى فيه : باب ذكر شعب الإيمان (٨/١١٠) ، وأخرجه ابن ماجه فى المقدمة رقم (٥٧) بلفظ : « الإيمان بضع وستون أو سبعون بابًا » .

الصلاة »[1].

قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »[2]، والاستطاعة فى إنفاذ الأمر إما أن تكون فى الفعل الواحد ، كالصلاة مثلًا ، فإذا لم يستطع المسلم أن يصليها وهو قائم ، وجب عليه أداؤها على الوجه الذى يستطيعه من قعود أو اضطجاع أو غير ذلك .

وإما أن تكون الاستطاعة فى مجموع الأفعال ، فقد لا يستطيع المسلم أن يصوم لمرض ، فى حين يكون قادرًا على أداء الصلاة على كل حال ، فوجبت الصلاة فى حقه ، وسقط عنه الصيام إن كان مرضه مزمنًا ، وإلا صام حين شفائه ، وقد لا يقوى المسلم – لعذر من الأعذار – أن يصلى فى المسجد ، وهو مأمور بأدائها فيه ، فلا يقال : ما دام أنه لا يستطيع أن يصليها فى المسجد فلا يصليها ، بل يقال : يفعل ما يقدر عليه ، ويُعذر فيما لا يقدر عليه .

أما المنهيات ، فقد أمر النبى ﷺ أمته أن تجتنبها كلَّها ، من غير فرق بين واحدٍ وواحد ، فكما أنه نهى عن الزنا ، نهى عن النظر المحرم إلى المرأة ، وكما أنه نهى عن شرب الكثير من الخمر ، نهى عن شرب القليل منها ، وكما أنه نهى عن سرقة المال الكثير ، فإنه نهى عن سرقة الدرهم والدرهمين ، وكما أنه نهى عن الكذب على الأمة كلها ، فإنه نهى عن الكذب على الرجل الواحد ، فلا يقال هنا : يجتنب ما يستطاع اجتنابه ، بل يجب اجتناب كل ما نهى

---

(١) رواه من حديث أبى أمامة رضى الله عنه الإمام أحمد (٢٥١/٥) ، والحاكم (٩٢/٤) ، وقال : « إسناده صحيح ، ولم يخرجاه » ، ورواه ابن حبان (موارد : رقم ٢٥٧) ، ص (٨٧) ، وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (١٥/٥) .

(٢) رواه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه البخارى (٢١٩/١٣ ، ٢٢٠) فى الاعتصام : باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، ومسلم – واللفظ له – فى الفضائل (٩١/٧) ، والنسائى (١١٠/٥ – ١١١) فى الحج ، وابن ماجه رقم (٢) فى المقدمة – والمقصود أنه ﷺ زجر عن النواهى مطلقًا ولم يفرق بين قشر ولب ، وعلق امتثال الأوامر على الاستطاعة ، ولم يعلقه بكونها قشرًا أو لبًّا على زعمهم .

عنه ، ولا يعفى إلا عن الناسى أو المخطىء أو المكره][1] اهـ .

وتقسيم الدين إلى « قشر ولب » تقسيم غير مستساغ ، بل هو محدث ودخيل على الفهم الصحيح للكتاب والسنة ، ولم يعرفه سلفنا الصالح الذين كل الخير والنجاة فى اتباعهم واقتفاء آثارهم ﴿ **إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾[2] وهذه القسمة إلى قشر ولب ، ظاهر وباطن - يتبعها المناداة بإهمال الظاهر احتجاجًا بصلاح الباطن - تلقى رواجًا عند المستهترين والمخدوعين ، حينما يرون القوم يسمون المعاصى بغير اسمها فيقولون - مثلًا - إن إعفاء اللحية من سنن العادة ، بل عدَّ بعضهم إعفاء اللحية وقص الشارب من الأمور العادية التى لا صلة لها بتبليغ الرسالة وبيان الشرع ، وعد ذلك من قبيل المندوب بل فى ثالث مراتبه بعد السنن المؤكدة وغير المؤكدة ، بل قال : (ومن أخذ به على أنه جزء من الدين ، أو على أنه أمر مطلوب على وجه الجزم فإنه يبتدع فى الدين ما ليس منه)[3] اهـ .

---

(١) من « تنوير الأفهام لبعض مفاهيم الإسلام » للأستاذ محمد إبراهيم شقرة ص (٣٥ : ٤٤) ملخصًا .

(٢) (النجم : ٢٣) .

(٣) والقول بأن إعفاء اللحية من العادات التى قد تجرى بها أعراف الناس باطل ، لأن ما تجرى به العادة قسمان : قسم سكت عنه الشارع ، ولم يتعرض له بوجوب ولا تحريم فهذا مباح لا لوم على فاعله ، والثانى : ما أوجبه الشارع وأمر به أو حرمه ونهى عنه ، فهذا القسم لما تعرض له الشارع بالإيجاب أو التحريم صار من الدين ، وما أكثر الأعمال التى كانت تجرى مجرى العادات قبل البعثة ، ثم دخلت فى حدود المناهى التى حرمها الشارع فأصبح اجتنابها من الدين ، كالوشم والتنميص ووصل الشعر والنياحة والميسر وغير ذلك ، وهب - جدلًا - أن إعفاء اللحية عادة فلم لا نتأسى بعادة النبى محمد ﷺ والخلفاء الراشدين والصالحين من هذه الأمة المحمدية ؟! وقد نقل ابن الحاج عن الغزالى رحمه الله قوله فى « كتاب الأربعين » : (اعلم أن مفتاح السعادة: فى اتباع السنة ، والاقتداء برسول الله ﷺ فى جميع مصادره وموارده، =

وقسمة الدين إلى قشر ولب تؤثر فى قلوب العوام أسوأ تأثير ، وتورثهم الاستخفاف بالأحكام الظاهرة ، وينتج عنها الإخلال بهذه الأمور التى سميت قشورًا ، فلا تلتفت قلوبهم إليها ، فتخلو من أضعف الإيمان ألا وهو الإنكار القلبى الذى هو فرض عين على كل مسلم تجاه المنكرات .

والتفريط فى مُحَقَّراتِ الأعمال يؤدى إلى التفريط فى عظائمها ، لأن استمرار هذا التفريط يتحول مع الزمن إلى عادة تنتهى بصاحبها إلى قلة الاكترات بأمور دينه ، والتهاون بها .

ونحن إذا تسامحنا معهم فى هذه القسمة إلى قشر ولب ، فإننا نلفت أنظارهم إلى أن قياس أمور الدين على الثمار من حيث إن لكل منهما قشرًا ولبًّا ، وظاهرًا وباطنًا ، لا يعنى أن القشرة التى أوجدها الله للثمرة إنما خُلِقتْ عبثًا ، حاشا وكلا ، بل لحكمة عظيمة وهى المحافظة على ما دونها وهو اللب نفسه ، وهذا يحملنا على أن لا نستهين بالقشر من حيث كونُه حارسًا أمينًا على اللب ، وهكذا الشأن فى أمور الدين الظاهرة .

ومن هذا القبيل : تقسيم الدين إلى أصول وفروع ، فإن العلماء الذين فعلوا ذلك لا يظن بهم أنهم قصدوا بذلك التقسيم إيجاب الاتفاق على الأصول ، ثم التسامح مطلقًا فى الفروع ، كما يظن بعض متفقهة هذا الزمان ، فتراهم يميعون كل قضية فرعية بدعوى أن اختلاف الأمة ما دام فى الفروع فهو رحمة ، وهذا أصل قولهم : « مَنْ قَلَّدَ عالمًا لقى الله سالمًا » .

= وحركاته وسكناته ، حتى فى هيئة أكله وقيامه ، ونومه وكلامه ، لست أقول ذلك فى آدابه فقط ، لأنه لا وجه لإهمال السنة الواردة فيها ، بل ذلك فى جميع أمور العادات ، فبه يحصل الاتباع المطلق ، كما قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ (آل عمران : ٣١) ، وقال تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ (الحشر : ٧) ... فلا ينبغى التساهل فى امتثال ذلك ، فتقول : « هذا مما يتعلق بالعادات ، فلا معنى للاتباع فيه » ، فإن ذلك يغلق عنك بابًا عظيمًا من أبواب السعادات) اهـ من « المدخل » (١/١٤٣ ، ١٤٤) .

وهذا بدوره قد أدى ببعضهم إلى اتباع الهوى والترخص دون تحرى الدليل ، ويلزم من ذلك القول بأن الاتفاق سخط ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، ولو أنهم كانوا يرون أن « الخلاف شر » كما قال ابن مسعود رضى الله عنه وغيره ؛ بل كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، لَسَعَوْا إلى الاتفاق ، ولأمكنهم ذلك فى كثير من هذه المسائل المتناقضة التى لا يمكن التوفيق بينها ، إلا بِرَدِّ بعضِها المخالفِ للدليل وقبولِ البعضِ الآخر الموافقِ له ، وإلا فقد نسبوا إلى الشريعة التناقضَ ، والله عز وجل يقول :

﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾[1].

فإذا كان الاختلاف ليس من الله فكيف يصح جعلُه شريعةً متبعةً ، ورحمةً منزلة ؟

فالواجب التخلص من الخلاف ما أمكن ، أو تضييق دائرته عملًا بقوله ﷺ : « سَدِّدُوا وقاربوا »[2]، وهذا ممكن فى كثير من المسائل بما نصب الله تعالى عليها من الأدلة التى يُعرف بها الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، ثم بعد تحرى الدليل والعجز عن التخلص من الخلاف يعذر بعضهم بعضًا فيما قد يختلفون فيه[3]:

والذين قسموا الدين إلى قشر ولب ركبوا مطايا الخير للشر ، فاستدلوا على بدعتهم ببعض النصوص :

* منها: ما رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت

---

(١) (النساء : ٨٢) .

(٢) البخارى فى المرض (١٠/١٠٩) ، باب تمنى المريض الموت ، وفى الرقاق (١١/٢٥٢ - ٢٥٤) ، باب القصد والمداومة على العمل ، ومسلم رقم (٢٨١٦) فى صفات المنافقين ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، والنسائى (٨/١٢١ ، ١٢٢) فى الإيمان ، باب الدين يسر .

(٣) انظر : « الإحكام فى أصول الأحكام » لابن حزم (٥/٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨) ، « إعلام الموقعين » (٣/٣٥٩) ، « جامع بيان العلم » (٢/٨١ - ٨٩) ، « المسودة » لآل تيمية ص (٤٩٧) .

رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى »[1] الحديث .

✵ ومنها : ما رواه النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بَيِّنٌ ، وإن الحرامَ بَيِّنٌ ، وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهاتِ فقد استبرأ لدينه وعِرْضِه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتعَ فيه ، ألا وإن لكل مَلِكٍ حِمى ، ألا وإن حمى الله محارمُه ، ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صَلُحت صلَح الجسدُ كله ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه ، ألا وهى القلب »[2].

✵ ومنها : ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[3].

---

(١) رواه البخارى (١/٧ – ١٥) فى بدء الوحى ، وفى الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرىء ما نوى ، وفى العتق باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، وفى فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وفى النكاح ، باب من هاجر أو عمل خيرًا لتزويج امرأة فله ما نوى ، وفى الأيمان والنذور ، باب النية فى الأيمان ، وفى الحيل ، باب فى ترك الحيل وأن لكل امرىء ما نوى ، ومسلم رقم (١٩٠٧) فى الإمارة ، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، وأبو داود رقم (٢٢٠١) فى الطلاق ، باب فيما عنى به الطلاق والنيات ، والترمذى رقم (١٦٤٧) فى فضائل الجهاد ، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا ، والنسائى (١/٥٩ ، ٦٠) فى الطهارة ، باب النية فى الوضوء .

(٢) رواه البخارى (١/١١٦ ، ١١٩) فى الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، وفى البيوع : باب الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشتبهات ، ومسلم (١٥٩٩) فى المساقاة : باب لعن آكل الربا ومؤكله .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤) فى البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله ، وأخرجه الإمام أحمد (٢ / ٢٨٥ ، ٥٣٩) ، وابن ماجه (٤١٤٣) فى الزهد : باب القناعة .

قالوا : فهذه النصوص وأمثالها كثير تدل على أن العبرة بصلاح الباطن وصفاء النية وسلامة القلب ، ولا التفات بعد ذلك إلى القشور الظاهرة .

وجواب ذلك :

ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله ، إلا وفى ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله) ،

وهذه من حكم الله الباهرة وآياته الظاهرة التى تبطل عمل المفسدين .

فقوله ﷺ : « إنما الأعمالُ بالنياتِ ، وإنما لِكُلِّ امرىءٍ ما نَوَى » لا يدل بأى وجه من وجوه الدلالات على إهدار العمل الظاهر ، وعدم اعتباره ، ولكنه يرشدنا إلى أحد شَرْطَىْ العبادةِ الصحيحة ، وهما شرط فى الظاهر ، وشرط فى الباطن ، فأما شرط الظاهر : فأن يكون العمل موافقًا لسنة النبى ﷺ منافيًا للبدع ، ودليل هذا الشرط قوله ﷺ : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد »[1] وفى رواية : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وأما شرط الباطن فهو إخلاص النية لله عز وجل المنافى للرياء ودليله قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » .

وقد جمعهما الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا ولا يشركْ بعبادةِ ربه أحدًا** ﴾[2].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله فى قوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[3] قال : « أخلصه وأصوبه » ، وقال : « إن العمل إذا كان خالصًا

---

(١) رواه من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها البخارى تعليقًا بصيغة الجزم (٢٩٨/٤) فى البيوع : باب النجش ، ووصله فى الصلح (٢٢١/٥) باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، ومسلم رقم (١٧١٨) فى الأقضية : باب نقض الأحكام الباطلة ، وأبو داود فى السنة : باب لزوم السنة (٥٠٦/٢) ، وأخرجه ابن ماجه فى المقدمة : باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ رقم (١٤) .

(٢) (الكهف : ١١٠) .

(٣) (الملك : ٢) .

ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا » ، قال : « والخالص إذا كان لله عز وجل ، والصواب إذا كان على السنة » ، فالحديث دليل على خطر النية وعظم شأنها ، ولا يدل بحال على إسقاط شعائر الإسلام الظاهرة ، وقوله ﷺ « الأعمال بالنيات » تقديره (الأعمال الواقعة بالنيات) أو (الأعمال حاصلة بالنيات)[1] أى الأعمال الاختيارية لا تقع إلا عن قصد من العامل هو سبب وجودها وعملها ، ثم يكون قوله : « وإنما لكل امرئ ما نوى » إخبارًا عن حكم الشرع ، وهو أن حظ العامل من عمله بنيته فإن كانت صالحة فله أجره ، وإن كانت فاسدة فعمله فاسد فعليه وزره) .

بل فى الحديث مايدل على خطرها أيضًا ، وهو قوله ﷺ بعد ذلك : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فهذا مَثَلٌ من الأعمال التى صورتها فى الخارج واحدة ، ويشترك فيها المؤمنون والمنافقون ، ويختلف صلاحُها وفسادُها باختلاف النيات ، فهل يستقيم أن يستنبط إنسان من هذا التنفير عن الهجرة من دار الحرب إلى دار

---

(١) وفى رواية (إنما العمل بالنية) ، (ال) للعهد ، وليست للاستغراق والشمول يراد منها : الأعمال الصالحة ، قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : « إنما الأعمال الصالحة بالنيات الخالصة ، والنية الحسنة لا تجعل الباطل حسنًا ؛ لأن النية وحدها لا تكفى لتصحيح الفعل ، فلا بد أن ينضم إليها التقيد بالشرع » اهـ . من « مدارج السالكين » (٨٥/١) فمِن ثَمَّ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه راوى حديث النيات : « إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله ﷺ ، وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرًا صدقناه ، وقرَّبناه ، وليس لنا من سريرته شيء ، الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه ، وإن قال : « إن سريرته حسنة ») رواه البخاري (٢٢١/٣) فى الشهادات : باب الشهود العدول .

الإسلام اعتماداً على صدق النية ، ألا يكون تخاذله عن هذه الهجرة من باب أولى أعظم دليل على فساد قلبه وسوء نيته ؟ ! مصداقًا لقوله ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1].

وما قيمة هذه النية المزعومة إذا لم ينبثق عنها امتثال الأوامر واجتناب المناهى ؟ ! ونظير ذلك نصوص كثيرة تربط بين كافة الشرائع الظاهرة وبين النية ، وتُعَلِّقُ الفلاح على صلاح النية وصلاح العمل – قال مطرف بن عبد الله : « صلاح القلب بصلاح العمل ، وصلاح العمل بصلاح النية » .

❋ من ذلك: قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك ، عصموا منى دماءهم وأموالهم ، إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله تعالى »[2] فقوله ﷺ: « وحسابهم على الله عز وجل » يعنى أن الشهادتين مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهى أعمال ظاهرة؛ تعصم دم صاحبها وماله فى الدنيا إلا بأن يأتى ما يبيح دمه ، وأما فى الآخرة فحسابه على الله عز وجل فإن كان صادقًا أدخله الله بذلك الجنة ، وإن كان كاذبًا فإنه من جملة المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وفى بعض روايات مسلم : ثم تلا : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم** ﴾ [الغاشية : ٢١– ٢٦] .

❋ ومن ذلك: ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: (أن خالد بن الوليد رضى الله عنه استأذن النبى ﷺ فى قتل رجل ، فقال : « لا ، لعله أن يكون

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٤) .

(٢) رواه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما البخاري (١/٧٠ ، ٧١) فى الإيمان : باب « فإن تابوا وأقاموا الصلاة » ، ومسلم فيه أيضًا : باب الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله ، رقم (٢٢) .

يصلى » فقال خالد : وكم من مُصَلٍّ يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم »[(١)] .

❋ ومن ذلك: ما رواه عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « من غزا فى سبيل الله ولم ينو إلا عِقالًا فله ما نوى »[(٢)] .

❋ ومنه: ما رواه كعب بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من طلب العلم ليمارى به السفهاء ، أو يجارى به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ؛ أدخله الله النار »[(٣)] .

فهذه كلها وأمثالها كثير ، نصوصٌ تنبه على خطورة الإخلاص واشتراطه

---

(١) رواه البخارى فى المغازى ، باب بعث على بن أبى طالب عليه السلام وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع ، رقم (٤٣٥١) ، ومسلم فى الزكاة – باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتَصَبُّر من قوى إيمانه (٣/١١١) ، والإمام أحمد فى « مسنده » (٣/٤) ، ومع أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى القلوب ، إلا أنه شرع لنا ما يناسبنا ، ويقع فى مكنتنا ؛ وهو التعامل بالظاهر ، وفى الحديث : « إنكم تختصمون إلَّى ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى لكم على نحو مما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا ؛ فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة » متفق عليه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/٣٢٩) والنسائى (٦/٢٤ ، ٢٥) فى الجهاد : باب من غزا فى سبيل الله ، ولم ينو من غزاته إلا عقالًا ، وفى سنده يحيى بن الوليد حفيد عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، لم يوثقه غير ابن حبان .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٥٦) فى العلم ، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا ، وفى سنده إسحٰق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمى ، قال الحافظ فى « التقريب » : (ضعيف) ، ولذا قال الترمذي : (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسحق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوى عندهم ، تكلم فيه من قبل حفظه) – لكن للحديث شواهد بمعناه يقوى بها – انظر ابن ماجه رقم (٢٥٣) عن ابن عمر رضى الله عنهما ، و (٢٥٤) عن جابر رضى الله عنه .

فى الأعمال الصالحة ، وأن القول بإهدار الأعمال الظاهرة قول ساقط يؤدى إلى ضياع الدين واستحلال المحرمات احتجاجًا بالنية الصالحة المزعومة[١] ، وكذبوا ، لو حسنت نياتهم لحسنت أعمالهم ، وكذلك قوله ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهى القلب » فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للحرمات واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه ، فإن كان قلبه سليمًا ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله ، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه ؛ صلحت حركات الجوارح كلها ، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها ، وتوقى الشبهات حذرًا من الوقوع فى المحرمات ، وإن كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتباعُ الهوى ، وطلبُ ما يحبه – ولو كرهه الله – فسدت حركات الجوارح كلها ، وانبعثت إلى كل المعاصى والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب ، ولهذا يقال : القلب ملك الأعضاء ، وبقية الأعضاء جنوده ، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون فى طاعته وتنفيذ أوامره ، لا يخالفونه فى شيء من ذلك .

والحاصل أنه يمكن الاستدلال على صلاح القلب أو فساده بمدى ما تظهره جنوده من الانقياد لشرائع الإسلام ، فلا يتصور قلب صالح عامر بالعلم والإيمان ينضح منه معاندة الشرع ، إذ إن الظاهر عنوان الباطن ودليل صلاحه أو فساده – فاللحية مثلًا من الجسد الذي هو مرآة القلب فمن استأصلها بغير عذر محتجًّا بصلاح قلبه كذَّبه ظاهرُه ، ومن امتثل أوامر

---

(١) إذ يلزم منه مفاسد لا حصر لها : من استباحة ترك ما فرض الله من وقوف وركوع وسجود فى الصلاة ، وتوجه إلى القبلة ، والتزام بطلوع الفجر للبدء بالصيام ، وغياب الشمس لانتهائه ، وإذن لاستبيح ترك شعائر الحج من إحرام وهَجْر مَخيط ومصبوغ من الثياب ، وطواف بالكعبة ، وسعى بين الصفا والمروة ، ووقوف بعرفات ، إلى غير ذلك من رمى جمار ونحوه ، بل لو صح هذا لاضطرب التكليف جملة ، ولا يقول بهذا مسلم .

الشرع بإعفائها ؛ كانت قرينة ظاهرة فى الدنيا على امتثاله لشرع الله فى الظاهر ، وحسابه على الله فى الآخرة .

والله نسأل أن يجعل سرائرنا أصلح من ظواهرنا ، وهو وحده ولى التوفيق .

وأما استدلالهم بقوله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » فهو حق يراد به باطل ، بل هو حجة عليهم لا لهم ؛ لأنه ﷺ لمَ يقل : « ولكن ينظر إلى قلوبكم » حتى عطف عليها « وأعمالكم » يعنى التى تنبثق من تلك القلوب ، والتى لا بد أن تكون صالحة موافقة لمرضاة الله عز وجل مرجوًّا بها وجهُه سبحانه[1].

وقد قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾[2].

---

(١) كما أن الحديث يعنى أن المعتبر عند الله عز وجل التقوى ، قال جل وعلا : ﴿ **لن ينال اللهَ لحومُها ولا دِماؤها ولكن ينالُه التقوى منكم** ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ، والتقوى محلها القلوب ، قال ﷺ : « التقوى ههنا » ثلاثًا ، وأشار إلى صدره الشريف ﷺ ، ويفهم من قوله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم » إهدار اعتبار المظاهر الجوفاء ، والصور الجميلة ، والثياب الرفيعة عند الله جل وعلا ، فهذا يوسف عليه السلام يقول : ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ ولم يُدلِّ بحسن صورته ، وجمال خلقته ، فى حين قال سبحانه فى المنافقين ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ ، وفى صحيح مسلم : « كانوا رجالًا أجملَ شيء ، كأنهم خشب مسندة » ، فشبههم بخُشب مسندة إلى الحائط لا يسمعون ، ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ، وانظر ص (٤٦ – ٥١) .

(٢) الأنفال : (٢ – ٤) .

ولا شك أن هذا الأسلوب فى فهم النصوص هو وحده الكفيل بأن يسد الباب فى وجه الزنادقة والملاحدة الذين يتحصنون وراء دعوى حسن النية ويرتكبون المخالفات الشرعية ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾[1]، ويضربون بالأحكام الظاهرة التى هى شعائر الإسلام وأعظم أركانه كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها عُرْضَ الحائط دون أن ينكر عليهم منكِر ، وإلا لزم أيضًا نسبة التناقض إلى الشرع المنزه ، حيث تنبنى أحكامه على ما يظهره الناس فى دار الدنيا،ثم تهدر هذه الشرائع بحجة حسن نية من أهدروها – وهذا ما لم يفعله المنافقون فى عهد رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يصلون معه ويحجون معه ويجاهدون معه ، وكانوا يتناكحون ويتوارثون مع المسلمين ، وكان المسلمون يصلون عليهم ، ويدفنونهم معهم أخذًا بما يُظهرونه ، ثم نقول : أليس رسول الله ﷺ الذى نطق بالنصوص التى تدل على أهمية النية هو الذى نطق بالنصوص التى فيها اعتبار الظاهر ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى** ﴾[2] ﷺ – وصدق الله تعالى إذ قال : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾[3] .

وإذا كانت النصوص السابقة قد أسست فكرة الارتباط بين الظاهر والباطن فإن هناك جملة من النصوص قد فصَّلت هذه الفكرة، وأثبتت تأثير كل منهما فى الآخر :

منها ما رواه النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ يسوى صفوفنا حتى كأنما يُسوِّى بها القِداحَ[4]، حتى رأى أنا قد

---

(١) البقرة : (١١ ، ١٢) .

(٢) (النجم : ٣ ، ٤) .

(٣) (النساء : ٨٢) .

(٤) القِداح : هى خشب السهام حين تُنحت وتُبرى ، واحدها : قِدْح ، معناه : يبالغ فى تسويتها حتى تصير كأنما تُقوَّمُ بها السهام لشدة استوائها واعتدالها .

عَقَلْنا عنه ، ثم خرج يومًا فقام حتى كاد يكبر ، فرأى رجلًا باديًا صدرُه من الصف ، فقال : « عبادَ الله ! لَتُسَوُّنَّ صفوفَكم ، أو ليخالِفَنَّ الله بين وجوهكم ») وفى رواية : «قلوبكم »[1] فأشار ﷺ إلى أن الاختلاف فى الظاهر ولو فى تسوية الصف مما يوصل إلى اختلاف القلوب ، فدل على أن للظاهر تأثيرًا فى الباطن ، ولذلك كان النبى ﷺ ينهى عن التفرق حتى فى جلوس الجماعة ، فقد قال جابر بن سمرة رضى الله عنه :

(خرج علينا رسول الله ﷺ فرآنا حِلَقًا ، فقال : « ما لى أراكم عِزِين ؟ »[2]) .

وعن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال : (كان الناس إذا نزلوا منزلًا تفرقوا فى الشعاب والأودية ، فقال رسول الله ﷺ : « إن تفرقكم فى هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان » ، فلم ينزلوا بعد ذلك منزلًا إلا انضم بعضهم إلى بعض ، حتى يقال : « لو بُسِطَ عليهم ثوب لَعَمَّهم »[3]) .

---

(١) رواه البخارى (١٧٣/٢) فى صلاة الجماعة : باب تسوية الصفوف عند الإقامة ، وكذا رواه مسلم – واللفظ له – رقم (٤٣٦) فى الصلاة : باب تسوية الصفوف وإقامتها ، وأبو داود رقم (٦٢٢ ، ٦٦٣) فى الصلاة : باب تسوية الصفوف ، والترمذى رقم (٢٢٧) فى الصلاة : باب ما جاء فى إقامة الصفوف ، والنسائى (٨٩/٢) فى الإمامة : باب كيف يقوم الإمام الصفوف ؟

(٢) رواه مسلم رقم (٤٣٠) فى الصلاة ، باب الأمر بالسكون فى الصلاة ، وأبو داود – واللفظ له – رقم (٤٨٢٣) فى الأدب ، باب فى التحلق ، وكذا رواه الإمام أحمد (٩٢/٥ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٧) .

ومعنى عزين : أى متفرقين ، جماعة جماعة – ومعناه النهى عن التفرق والأمر بالاجتماع .

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٢٦٢٨) فى الجهاد : باب ما يؤمر من انضمام العسكر ، وابن حبان (١٦٦٤ – موارد) ، والحاكم (١١٥/٢) ، ومن طريقه البيهقى (١٥٢/٩) ، والإمام أحمد (١٩٣/٤) ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد »، ووافقه الذهبى .

ومما يقوى اعتبار الظاهر ما تقرر فى الشريعة من وجوب مخالفة الكفار وتحريم التشبه بهم ، وما تقرر أيضًا من تحريم تشبه الرجال بالنساء والعكس ، بل تُوُعِّدَ فاعلُ ذلك باللعن ، ولا شك أن المشاركة فى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر بين المؤمنين والكافرين ، وهذا مما حرص السلف على تجنبه ، وهو واضح من سلوكهم مع أهل الملل فى البلاد التى فتحوها ، حتى كانوا يشترطون فى عقد الذمة ألا يتزيا المشركون بزى المسلمين .

وطريق الهدى أن نصلح الظاهر والباطن : نصلح ظاهرنا باتباع السنة ، وباطننا بدوام مراقبة الله تعالى ، ولا ندع العمل الصالح حذر الرياء ، ولا نعمله رئاء الناس ، والله الموفق .



قضية « مبدأ »

لقد لَفَتَنا سلفنا الصالح إلى التمايز الحضارى ، والمحافظة على « قشرة » معينة تفترق بها أمتنا عن سائر الأمم ، وهذه « القشرة » التى تحمى « الهوية » الإسلامية المتميزة هى ما أسماه علماؤنا رحمهم الله : « الهدى الظاهر » ، وأفاضوا فى بيان خطر ذوبان الشخصية المسلمة وتميعها ، فما يشيع على ألسنة الناس من أن « العبرة بالجوهر لا بالمظهر »[1] ينطوى على مغالطة جسيمة ، وخداعٍ كاذب ، لأن كلًّا من المظهر والجوهر لا ينفك عن الآخر ، والظواهر هى المعبرة عن المضامين ،وهى الشعارات التى تحافظ على الشخصية ، إنها قضية « مبدأ » وليست مجرد شكل ومظهر ، ولنضرب مثالًا على ذلك : حكم التشبه بالكفار فى أحوالهم الظاهرة ، وتأثير ذلك على قلب المتشبه بهم :-



(١) وأولى منه – فى هذا المقام – الاستدلالُ بقولهم : « كل إناء بما فيه ينضح » .

❂ الارتباط بينَ الظاهر وَالباطِن ❂

لقد تقرر عند العلماء المحققين أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الظاهر والباطن ، وأن للأول تأثيرًا فى الآخر ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، وإن كان ذلك مما قد لا يشعر به الإنسان فى نفسه ، ولكن قد يراه فى غيره .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وجزاه عن الإسلام وأهله خير الجزاء :

(.. وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة ، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد ، ثم اجتمعا فى دار غربة كان بينهما من المودة والموالاة والائتلاف أمر عظيم ، وإن كانا فى مصرهما لم يكونا متعارفين ، أو كانا متهاجِرَيْنِ ، وذلك لأن الاشتراك فى البلد نوع وصف اخْتُصَّا به عن بلد الغربة ، بل لو اجتمع رجلان فى سفر أو بلد غريب ، وكانت بينهما مشابهة فى العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركوب ونحو ذلك ، كان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما ، كذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضًا ما لا يألفون غيرهم ، حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة ، إما على الملك وإما على الدين ، وتجد الملوك ونحوهم من الرؤساء – وإن تباعدت ديارهم وممالكهم – بينهم مناسبة تورث مشابهة ورعاية من بعضهم لبعض ، وهذا كله بموجب الطباع ومقتضاها ، إلا أن يمنع من ذلك دين أو غرض خاص ، فإذا كانت المشابهة فى أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة ، فكيف بالمشابهة فى أمور دينية ؟

فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد ، والمحبة والموالاة لهم – أى الكفار – تنافى الإيمان ، قال تعالى : ﴿ **لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو**

عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾[1] الآية .

فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يوجد مؤمن يُوَادُّ كافرًا ، فمن وادَّ الكفار فليس بمؤمن ، فالمشابهة الظاهرة مظنة المودة فتكون محرمة)[2] اهـ .

وهذا كله يؤيد أن مخالفة الكفار ليست أمرًا تعبديًّا محضًا ، بل هو معقول المعنى واضح الحكمة كما بينه شيخ الإسلام رحمه الله .

وقال شيخ الإسلام فى موضع آخر : (وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما- ولا بد- ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا ، وقد بعث الله محمدًا ﷺ بالحكمة التى هى سنته ، وهى الشرع والمنهاج الذى شرعه له ، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين ، وأمر بمخالفتهم فى الهدى الظاهر ، وإن لم يظهر لكثير من الخلق فى ذلك مفسدة لأمور :

✵ منها: أن المشاركة فى الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلًا بين المتشابهين يقود إلى الموافقة فى الأخلاق والأعمال ، وهذا أمر محسوس ، فإن اللابس ثياب أهل العلم مثلًا يجد من نفسه نوعَ انضمامٍ إليهم ، واللابسَ لثياب الجند المقاتلة – مثلًا – يجد من نفسه نوعَ تخلق بأخلاقهم ، ويصير طبعه مقتضيًا لذلك إلا أن يمنعه من ذلك مانع .

✵ ومنها: أن المخالفة فى الهدى الظاهر توجب مباينةً ومفارقة توجب الانقطاعَ عن موجباتِ الغضب وأسبابِ الضلال ، والانعطافَ إلى أهل الهدى والرضوان ، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه

---

(١) (المجادلة : ٢٢) .

(٢) « اقتضاء الصراط المستقيم » ص (٢٢١ ، ٢٢٢) ، وانظر : « حكم الشرع فى اللحية والأزياء » للشيخ عثمان الصافى ص (٥٢ ، ٥٣) .

الخاسرين ، وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام الذى هو الإسلام – لست أعنى مجرد التوسم به ظاهرًا أو باطنًا بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة – كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أو ظاهرًا أتم ، وبعده عن أخلاقهم الموجودة فى بعض المسلمين أشد .

❋ ومنها: أن مشاركتهم فى الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهرًا بين المهديين المرضيين ، وبين المغضوب عليهم والضالين ، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية ، هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحًا محضًا لو تجرد عن مشابهتهم ، فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر ، فموافقتهم فيه موافقة فى نوع من أنواع معاصيهم ، فهذا أصل ينبغى أن يتفطن له)[1] اهـ .



(١) « السابق » .

۞ هُوِيَّتنا فى خطر ۞

نحن بشر مأنوسون لسنا أرواحًا لطيفة فحسب ، ولا أطيافًا عابرة ، ومقتضى ذلك أن لنا مظهرًا ماديًّا محسوسًا ، وهذا المظهر كما بينا آنفًا شديد الارتباط بالجوهر ، وقد جعلت الشريعة الحنيفية تميز الأمة الإسلامية فى مظهرها عما عداها من الأمم مقصدًا أساسيًا لها ، بل إن كل أهل ملة ودين يحرصون على مظهرهم باعتباره معبرًا عن خصائص هويتهم ؛ وآية ذلك أنك ترى أتباع العقائد والديانات يجتهدون فى التميز ، والاختصاص بهوية تميزهم عن غيرهم ، وتترجم عن أفكارهم ، وترمز إلى عقيدتهم :

لكم « قشرتكم » .. ولنا « قشرتنا »

وهذا أوضح ما يكون فى عامة اليهود الذين يتميزون – بصرامة – بطاقيتهم ، ولحاهم وأزيائهم الدينية ، وفى المتدينين من النصارى الذين يعلقون الصليب ، وفى السيخ والبوذيين وغيرهم ؛ أليس هذا كله تميزًا صادرًا عن عقيدة ومعبرًا عن الاعتزاز بها ؟!

وإذا كانت هذه المظاهر هى صبغة الشيطان التى كسا بها أهل الضلال والكفران ، فكيف لا نستمسك بصبغة الرحمن التى حباناها الله عز وجل ﴿ **صبغةَ الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون** ﴾ ، لماذ تُقَدَّسُ الحرية الدينية لكلِ من هَبَّ ودَبَّ وفى نفس الوقت تُشَنُّ الحروب « الاستراتيجية » على المظاهر الإسلامية كاللحية والحجاب ، حتى إنه لتعقد من أجلها برلمانات ، وتصدر قرارات ، وتثور أزمات ، وتُجَيَّش الجيوش ، وتُرابِطُ القوات ، هذا ونحن أصحاب الدار ، و :

كُلُّ دارٍ أَحَقُّ بالأهل إلا فى ردىء من المذاهب رِجْسِ
أحرام على بلابله النَّوْحُ حلالٌ للطير من كل جنسِ ؟

أفكل هذا من أجل ما أسموه « قشورًا » ؟ كلا ، بل هم يدركون ما

لهذه المظاهر من دلالة حضارية عميقة ، ويدركون أنها رمز يتحدى محاولات التذويب والتمييع ، ويصفع مؤامرة استلاب الهوية ، كمقدمة للإذلال والاستعباد .

إن من يتخلى عن « القشرة الإسلامية » سيتغطى – ولا بد – بقشرة دخيلة مغايرة لها ، فلا بد لكل « لب » من « قشر » يصونه ويحميه ، والسؤال الآن : لماذا يرفضون « قشرة » الإسلام ، ويرحبون بقشرة غيره : فيأكلون بالشمال ، ويحلقون اللحى ، ويُلبسون النساء أزياء من لا خلاق لهن ، ويلبسون القبعة ، ويُدَخِّنون « البايب » والسيجار ؟



۞ دعوا السّنة تمضى ، لا تَعْرِضوا لهَا بالرأى ۞

يحلو لبعض الناس ممن يتقنون صناعة الشبهات وضرب الأمثال أن يتصدوا لكل داع يبين حكم الشرع فى قضايا الفروع سواء تكلم بها ابتداء أو جاءت إجابة لسائل يسأل ، فيثيرون الاعتراضات العقلية الجدلية معرضين عن الأدلة الشرعية الجَلَدِيَّة ، فيقولون مثلًا : المسلمون ينبغى أن تتجه همتهم إلى الأمور الخطيرة التى تهدد كيانهم ، ولا ينبغى تضييع الوقت فى الدعوة إلى هذه الشكليات ، وهل تم تطبيق الإسلام كله حتى لم يبق إلا إعفاء الناس لحاهم حتى يعود مجد الإسلام ؟ وهل زالت المنكرات الكبرى التى عمت المجتمع حتى لم يبق إلا حلق اللحية منكرًا يجب تغييره ؟

وهذه شبهات فارغة ساقطة يكفى سقوطها فى ردها ، ولولا أنها تلبس على بعض الناس أمور دينهم لما ساغ لأحد الالتفات إليها ، أو تجشم الرد عليها .

لأن هذا المنطق الكاسد والرأى الفاسد سوف ينسحب بلا قيدٍ على كثير من أحكام الشريعة التى لا توافق الأهواء ، بحيث لا يبقى بعد ذلك مجال للدعوة إلى اجتناب المحارم وتعظيم الشعائر ، وتصبح الشريعة ألعوبة فى يد المنحرفين عن أحكامها ، يُعَظِّمُ أحدُهم ما يحتقره الآخر ، والعكس بالعكس ، بل إن أخطار هذا المنهج العليل وتداعياته قد يمتد زحفها ليطال قضايا العقيدة والتوحيد لتصبح أيضًا من القشور ، فماذا يبقى من الإسلام بعد تمييع هذا كله ؟ مع أن رسول الله ﷺ قد حذرنا من التهاون بالمعاصى واحتقارها ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « قد يئس الشيطان بأن يُعْبَدَ بأرضكم ، ولكنه رضى أن يُطاعَ فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا يا أيها الناس ، إنى قد تركت فيكم

ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا ، كتابَ الله وسنةَ نبيه »[1]، وعن أنس رضى الله عنه قال : (إنكم لتعملون أعمالًا هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات)[2] قال أبو عبد الله : يعنى بذلك المهلكات .

قال الحافظ رحمه الله : (التعبير بالمحقرات وقع فى حديث سهل بن سعد رفعه : « إياكم ومُحَقَّراتِ الذنوب فإن مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعُود ، وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها أهلكته » أخرجه أحمد بسند حسن ، ونحوه عند أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود ، وعند النسائى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « يا عائشة إياكِ ومحقراتِ الذنوب فإن لها من الله طالبا » وصححه ابن حبان)[3] اهـ .

ولنضرب مثالًا لما يحتقره بعض الناس من أحكام الشرع ، وقد يسخرون ممن يعيره اهتمامًا ألا وهو عدم جواز إسبال الملابس ، ولنتأمل كيف فعل رسول الله ﷺ مع المسبل :

(عن الشريد رضى الله عنه أن النبى ﷺ تبع رجلًا من ثقيف حتى

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٨٤/٣) ، الحاكم (٩٣/١) ، وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٢) رواه البخارى (٣٢٩/١١ - فتح) فى الرقاق : باب ما يتقى من محقرات الذنوب ، وصح فى مسند الإمام أحمد عن عبادة بن قُرص رضى الله عنه أيضًا قال : « إنكم لتأتون أشياء هى أدق فى أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات » ، فذكروا قول عبادة بن قُرْص لمحمد بن سيرين فَصَدَّقه ، وقال : « أرى جَرَّ الإزار منه » يعنى من الموبقات لما جاء فيه من الوعيد الشديد ، والناس يعدونه من الصغائر لفرط جهلهم وغرورهم ، انظر : « الفتح الربانى » (٢٩١/١٧) .

(٣) « فتح البارى » (٣٢٩/١١) .

هرول فى أثره حتى أخذ ثوبه فقال : « ارفع إزارك » ، قال : فكشف الرجل عن ركبتيه ، فقال : يا رسول الله إنى أحنف ، وتصْطكُّ ركبتاى، فقال رسول الله ﷺ : « كلُّ خَلْقِ الله عز وجل حَسَنٌ » ، قال : ولم يُرَ ذلك الرجل إلا وإزاره إلى أنصاف ساقيه حتى مات)[1].

عن عمرو بن فلان الأنصارى رضى الله عنه قال : (بينما هو يمشى قد أسبل إزاره ، إذ لحقه رسول الله ﷺ ، وقد أخذ بناصية نفسه ، وهو يقول : « اللهم عبدُك وابنُ عبدِك وابنُ أمَتِكَ » قال عمرو : فقلت : يا رسول الله إنى رجل حَمِشُ الساقين ، فقال : « يا عمرو إن الله عز وجل قد أَحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ يا عمرو » ، وضرب رسول الله ﷺ بأربع أصابع من كفه اليمنى تحت ركبة عمرو فقال : « يا عمرو هذا موضع الإزار » ، ثم رفعها ، ثم وضعها تحت الثانية ، فقال : « يا عمرو هذا موضع الإزار »)[2].

وتأمل هذا الموقف من أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وهو فى سياق مصيبة الموت الذى هو أعظم حادث مما يمر على الجبلة :

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: دخل شاب على عمر– يعنى بعد ما طُعِن – فجعل الشاب يثنى عليه ، قال : فرآه عمر يجر إزاره ، قال : فقال له : « يا ابن أخى ! ارفع إزارك فإنه أتقى لربك ، وأنقى لثوبك » ، قال : فكان

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٩٠/٤) ، والحميدى (٨١٠) ، والطحاوى فى « مشكل الآثار » (٢/ ٢٨٧) ، والطبرانى فى « الكبير » (٣٧٧/٧ ، ٣٧٨) ، وقال فى « المجمع » : (رجال أحمد رجال الصحيح) اهـ (١٢٤/٥) .

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٠٠/٤) ، وحسَّنه الحافظ فى « الإصابة » (٧٠٤/٤) ، وروى نحوه الطبرانى فى « الكبير » (٢٧٧/٨) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، قال فى « المجمع » (١٢٤/٥) : (رواه الطبرانى بأسانيد ، ورجالُ أحدها ثقات) اهـ .

عبد الله يقول : « يا عجبًا لعمر ! إن رأى حق الله عليه ، فلم يمنعه ما هو فيه أن تكلم به »[1].

وفى رواية : (فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض ، قال : ردُّوا علىَّ الغلام) ، فذكره .

وروى ابن أبى شيبة أن رجلًا من المجوس جاء إلى النبى ﷺ وقد حلق لحيته ، وأطال شاربه ، فقال له النبى ﷺ : « ما هذا؟ » ، قال : هذا ديننا ، قال رسول الله ﷺ : « لكن فى ديننا أن نحفى الشوارب ، وأن نعفى اللحية » .

وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن يحيى بن كثير قال :

أتى رجل من العجم المسجد ، وقد وفر شاربه وجز لحيته ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما حملك على هذا ؟ » فقال : « إن ربى أمرنى بهذا » فقال رسول الله ﷺ « إن الله أمرنى أن أوفر لحيتى ، وأحفى شاربى » ، ولما كتب رسول الله ﷺ كتابه إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ، وبعث به عبد الله بن حذافة ، دفعه عبد الله إلى عظيم البحرين ، ودفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه كسرى مزقه ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق، وبعد أن شق كتاب رسول الله ﷺ كتب «إلى باذان» عامِلِه على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جَلَدين فيأتيان به ، فبعث باذان قهرمانه وهو بابويه ، وكان كاتبًا حاسبًا مع رجل من الفرس ، فجاءا حتى قدما المدينة على رسول الله ﷺ ، ولما دخلا عليه ﷺ ، وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما كره رسول الله ﷺ النظر إليهما ، وقال : (« ويلكما من أمركما بهذا ؟ » قالا : أَمَرَنا بهذا رَبُّنا) - يعنيان كسرى - فقال رسول الله ﷺ : « ولكن ربى أمرنى بإعفاء لحيتِي وَقَصِّ شاربى »[2]، وقال لهما رسول الله ﷺ : « إنَّ رَبِّى قتل رَبكما الليلةَ » ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فرجعا حتى

---

(١) رواه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٨/٢٠١،٢٠٢)، وانظر: «سنن البيهقى» (١/٢٨٠).

(٢) (رواه ابن جريرالطبرى (٢/٢٦٦ ، ٢٦٧) عن يزيد بن أبي حبيب مرسلاً ، وحسنه الألبانى) ، كما فى « فقه السيرة » للغزالى هامش ص (٣٨٩) .

قدما على باذان) الحديث .

فقدِّر – يا أخى حفظك الله – أنك بحضرة رسول الله ﷺ ، وأنه أمرك بشىء مما يسميه القوم « قشورًا » ، أكنت تتجاسر أن تتقدم بين يديه ، أو ترفع صوتك معترضًا عليه ؟ إنك حتمًا وبمقتضى إيمانك ورضاك بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ستقول له : « نعم وكرامة ، وسمعًا وطاعة يا من أفديه بأبى وأمى » ، فكذلك فافعل مع سنته الشريفة بعد وفاته ، فهذا واجبك مع سنته إذ لم تدرك صحبته ﷺ .

قال العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألبانى – حفظه الله تعالى – فى سياق رده على من ادَّعى أن الإسلام لا يهتم بكل المظاهر الشكلية ومنها اللحية : (.. ومع أنها دعوى عارية عن الدليل ؛ فإنها منقوضة أيضًا بأحاديث كثيرة .. .

أقول : هذا الزعم باطل قطعًا ، لا يشك فى ذلك أى منصف متجرد من اتباع الهوى بعد أن يقف على الأحاديث الآتية ، وكلها صحيحة :

١ – عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » .

٢ – عن عائشة رضى الله عنها أن جارية من الأنصار تزوجت ، وأنها مرضت ، فتمعَّط شعرها ، فأرادوا أن يَصِلوها ، فسألوا النبى ﷺ ، فقال : « لعن الله الواصلة والمستوصلة » .

٣ – عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعًا : « لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيراتِ خلق الله » .

٤ – عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : رأى رسول الله ﷺ عَلَيَّ ثوبين معصفرين ، فقال : « إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها » .

أخرج هذه الأحاديث الشيخان فى « صحيحيهما » ، إلا الأخير منها فتفرد

به مسلم.. .

وفى الباب أحاديث كثيرة جدًا ، وهى مادة كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، فليراجعه من شاء .

فهذه نصوص صريحة تبين أن الإسلام اهتم بالمظاهر الشكلية اهتمامًا بالغًا إلى درجة أنه لعن المخالف فيها ، فكيف يسوغ مع هذا أن يقال : « إن كل المظاهر لا يهتم بها الإسلام » ؟)[1] اهـ .

فائـدة :

بيَّن رسول الله ﷺ أن بقاء الدين ظاهرًا خفاقة رايته مرهون بمخالفة المسلمين كفار أهل الكتاب ، وبقاء أمة التوحيد متميزة ربانية ، لا شرقية ولا غربية :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يزال الدين ظاهرًا ما عَجَّل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرون »[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) « تمام المنة فى التعليق على فقه السنة » ص (٨٣ - ٨٢) بتصرف يسير .

(٢) رواه أبو داود (٣٠٥/٢)، وابن حبان (٢٢٤)، والحاكم (٤٣١/١)، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» رقم (٧٥٦٦).

❋ درء تعارض التمسك بالهدى الظاهر ❋ مع الاهتمام بقضايا الأمة الكبرى

ويقولون : إن المسلمين المستضعفين يذبحون فى بلادهم ، والكنيسة الشرقية تتحد مع الكنيسة الغربية للفتك بالمسلمين ، واليهود يخططون لاستئصالنا وأنتم تتكلمون فى هذه الفرعيات وتثيرون الفتنة ؟

والجواب : أن ترك الواجب الشرعى مخافة الفتنة الظنية هو فى حد ذاته فتنة ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾[1].

ولا تحدث الفتنة بسبب التناصح بين المؤمنين بالتى هى أحسن ، وإنما تحدث من الجدل والعناد مع وضوح الحق ، وبيان الحجة .

إن ما ذكرتموه من اضطهاد المسلمين وضعفهم وتآمر أعدائهم ... إلخ ، كل هذا حق ولكنكم أُتيتم من خلطكم بين الأمور ، فكلامكم يقبل إذا سلمنا لكم أن التمسك بالفرعيات يتعارض مع مواجهة تآمر الأعداء وجهادهم ، والحق أنه لا يلزم التعارض بينهما ، إذ إن بيان الحق فى الأمور الفرعية لا يتعارض مع جهاد الأعداء إذا كان الهدف هو حقًّا بيان الحق ، مع البعد عن الجدل العقيم ، وقد واجه الرعيل الأول أخطارًا تهدد كيانهم ، ولم يحملهم ذلك على ترك الفرعيات وتقرير الحق فيها وإلزام أنفسهم باللازم منها ، ومع ذلك سادوا الأمم ، وأسقطوا عروش الكفرة ، وأقاموا صرح الإيمان شامخًا ، والذى يَفُتُّ فى عَضُدِ المسلمين هو من يجادل فى الحق بعدما تبين ، ويُصِرُّ

---

(١) (التوبة : ٤٩) ، هذا وقد قال بعضهم للشيخ زاهر بن قاسم العمرى اليمانى : (أنت تنهى عن حلق اللحية ، وتأمر المرأة بتغطية وجهها ، والمسلمون يذبحون بأفغانستان؟ فقال : يا هذا هبنا حلقنا لحانا ، وخرجت نساؤنا عاريات ماذا يستفيد من ذلك إخواننا الأفغانيون ؟) اهـ . من « المخرج من الفتن » ص (٦٢) .

على عدم الانقياد له ، ويثير الجدالَ بشبهات سقيمة ، وليس مَن يدعوهم إلى التمسك بالكتاب والسنة ، وإذا كان الكفار مخاطبين بفروع الشريعة على الأرجح[1] فكيف بالمسلمين الذين قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ **إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسولِهِ ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾[2] وقال عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة** ﴾[3] دون تفريق بين فروع وأصول ، وبين ظاهر وباطن ، وبين « قشر » « ولب » ، وربنا جل وعلا قد أمر المؤمنين بالقيام بما شرعه من دينه – ولو كان من القضايا العملية التى يسمونها فروعًا – فى أشد أوقات الكفاح ، وهو وقت الالتحام المسلح مع الأعداء ، فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتِ طائفةٌ أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم** ﴾ [4] الآية .

] وما يتوهمه القوم ما هو إلا نتيجة تخيلهم أن النسبة بين (مواجهة الأعداء والانتصار عليهم) وبين (تعلم المسائل الفرعية والتمسك بها وإن دقت) إنما

---

(١) ومن أدلة هذا الترجيح قوله تعالى : ﴿ **ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين** ﴾ (المدثر : ٤٢ – ٤٤)، وقوله سبحانه تعالى : ﴿ **خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ (الحاقة : ٣٠ – ٣٤) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلٰهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلّا بالحق** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا** ﴾ الآيات (الفرقان : ٦٨ – ٦٩) لأن الآية نص فى مضاعفة العذاب فى حق مَن جمع بين المحظورات المذكورة .

(٢) (النور : ٥١) .

(٣) (البقرة : ٢٠٨) .

(٤) (النساء : ١٠٢) .

هى تباين المقابلة ، كتباين النقيضين : كالعدم والوجود ، والنفى والإثبات ، أو تباين الضدين : كالسواد والبياض ، والحركة والسكون ، أو تباين المتضائفين : (كالأبوة والبنوة) ، والفوق والتحت ، أو العدم والملكة : كالبصر والعمى .

فإن الوجود والعدم لا يجتمعان فى شىء واحد فى وقت واحد من جهة واحدة ، كذلك الحركة والسكون مثلًا ، وكذلك الأبوة والبنوة ، فكل ذاتٍ ثبتت لها الأبوة لذات استحالت عليها البنوة لها ، بحيث يكون شخص أبًا وابنًا لشخص واحد ، كاستحالة اجتماع السواد والبياض فى نقطة بسيطة ، أو الحركة والسكون فى جِرْم ، وكذلك البصر والعمى لا يجتمعان ، فتخيل هؤلاء أن مواجهة الأعداء والتمسك بالفروع متباينان تباينَ مقابلة بحيث يستحيل اجتماعهما ، فكان من نتائج ذلك هذه المعارضة المتهافتة ، والتحقيق أن النسبة بين الأمرين– بالنظر إلى العقل وحده ، وقطع النظر عن النصوص النقلية – إنما هى تباين المخالفة .

وضابط المتباينيْنِ تباينَ المخالفة : أن تكون حقيقة كل منهما فى حد ذاتها تُباينُ حقيقةَ الآخر ، ولكنهما يمكن اجتماعُهما عقلًا فى ذات أخرى : كالبياض والبرودة ، والكلام والقعود ، والسواد والحلاوة .

فحقيقة البياض فى حد ذاتها تباين حقيقة البرودة ، ولكن البياض والبرودة يمكن اجتماعهما فى ذات واحدة كالثلج ، وكذلك الكلام والقعود ، فإن حقيقة الكلام تباين حقيقة القعود ، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعدًا متكلمًا فى وقت واحد ، وهكذا فالنسبة بين (جهاد الأعداء ومواجهة تآمرهم) وبين (الدعوة إلى الفروع والتمسك بها وتعليمها للناس) من هذا القبيل ، فكما أن الجِرْمَ الأبيضَ يجوز عقلًا أن يكون باردًا كالثلج، والإنسانَ القاعدَ يجوز عقلًا أن يكون متكلمًا، والتمرة السوداءَ يجوز عقلًا أن يكون مذاقُها حُلْوًا ، فكذلك المتمسك بالفروع يجوز عقلًا أن يواجهَ أعداءهْ ، ويجاهدَهم ،

إذ لا مانع فى حكم العقل من كون المحافظ على أوامر الله المجتنب مناهيه مشتغلًا بجهاد أعدائه بكل ما فى طاقته كما لا يخفى ، وكما عرفه التاريخ لنبينا ﷺ ، وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان .

أما بالنظر إلى أدلة الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾[1]، وقوله عز وجل : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم** ﴾[2] وغير ذلك من النصوص فإن النسبة بين التمسك بالشعائر الإسلامية وبين تنزيل النصر من الله جل وعلا كالنسبة بين الملزوم ولازمه ، لأن التمسك بالدين هو ملزوم النصر ، بمعنى أنه يلزم عليه الانتصار كما صرحت الآيات ، وهؤلاء المخالفون أظهروا للناس أن الربط بين الملزوم ولازمه كالتنافى الذى بين النقيضين والضدين][3]، وهؤلاء بدورهم أذعنوا لهم لسذاجتهم وجهلهم ، وأنتج ذلك نفرة فى قلوبهم ، بمجرد سماع من يتكلم فى الفروع توهمًا منه أنه يبطل بذلك الجهاد ، هذا وإن من البديهى أن فاقد الشىء لا يعطيه ، « ولا يستقيم الظل والعود أعوج » .

والدولة المسلمة لن تقوم إلّا على أكتاف أولى العزم الذين يلتزمون بكافة أحكام الشرع ، ويوافقونها فى ظاهرهم وباطنهم لقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[4].

والدولة المسلمة ما هى إلا ثمرة لتمسك جنود الإسلام بكل شرائع دينهم ، قال تعالى : ﴿ **ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا فى الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين * ونمكِّنَ لهم فى الأرض** ﴾[5] الآية .

---

(١) (الحج : ٤٠) .
(٢) (محمد : ٧) .
(٣) انظر : « أضواء البيان » (٣/٣٩٨ - ٤٠٠) .
(٤) (الرعد : ١١) .
(٥) (القصص : ٥ ، ٦) .

والدعوة الإسلامية الأمينة على الإسلام لا تساوم على شيء من أحكامه ، ولكنها تحفظها كلَّها أداءً للأمانة ، وإعذارًا لنفسها أمام الله تبارك وتعالى .

ولا شك أن إنكار المنكرات المتعلقة بالنفس – مع فقدان المانع من تغييرها – من أيسر الأمور ، فإذا تساهلنا فى هذا مختارين ، فكيف ننكر على غيرنا ؟ وقد أخبرنا الله عز وجل أن مصدر الخيرية لهذه الأمة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[1]، وأخبر أن من أسباب ضعف المجتمع تركَ التناهى عن المنكرات والأمر بالمعروف ، فقال تعالى : ﴿ **لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسانِ داودَ وعيسى ابنِ مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾[2]، وتَوَعَّدَنا رسولُ الله ﷺ أن يصيبنا ما أصابهم إذا فعلنا مثلَ فعلهم ، وقد عاقب الله من ضَيَّع حَظًّا من شريعته فى قوله تعالى : ﴿ **فَنَسُوا حظًّا مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة** ﴾[3]، ودلنا رسول الله ﷺ على المخرج من فتنة الافتراق بقوله : « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور فإن كلَّ بدعةٍ ضلالة ، وكل ضلالة فى النار »[4].

---

(١) (آل عمران : ١١٠) .

(٢) (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) .

(٣) (المائدة : ١٤) .

(٤) رواه أبو داود رقم (٤٦٠٧) فى السنة : باب لزوم السنة ، والترمذى رقم (٢٦٧٨) فى العلم : باب (١٦) ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه رقم (٤٢) ، فى المقدمة ، والإمام أحمد (٤/١٢٦ ، ١٢٧) ، قال الحافظ أبو نعيم : « هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين » .

فالمسلمون إذا نزلت بهم مخمصة وشدة فإن من أسباب جلاء الغمة عنهم المزيدَ من التمسك بالسنن والبراءة من البدع ، وليس مهادنة أهل البدع ، وتثبيط الدعاة إلى السنن .

قياس فاسد :

ومن أقيستهم العقلية الفاسدة التى يلبسون بها على العوام قولهم : إنما مثل من يتكلم فى هذه القشور والفرعيات والأعداء محدقون بنا ، كمثل رجل قائم على الشاطئ، وشخص يعالج الأمواج يوشك أن يغرق وقد لبس خاتمًا من ذهب ، فيهتف الأول بالثانى منكرًا عليه لُبْسَ خاتَمِ الذهب غيرَ مبالٍ بالخطر المُحْدِقِ به ، والذى يكاد أن يُودِىَ بحياته[1].

وجواب هذا أن يقال :

أنتم تقيسون فرعًا على أصل ليس بينهما أى تماثل ، والأصل المقيس عليه حالة ضرورة فلا شك يقدم دفع الضرر الأكبر الذى هو تلف النفس على المنكر الأصغر الذى هو لبس الرجل خاتمًا من ذهب ، فكذا إذا دهمنا الأعداء ننفر جميعًا لمواجهتهم دون التفات إلى خلافات فرعية انشغالًا بالمنكر الأكبر .

أما الفرع المقيس وهو وضع مجتمعاتنا فى هذا الزمان فلا شك أنه فى بلادنا – على الأقل – دون حالة الضرورة التى فيها تتلف الأنفس والأديان ويهلك الحرث والنسل ، وينفر المسلمون نفيرًا عامًّا بما فيهم الشيوخ والنساء ... وقد يُسْتَنْكَرُ هذا الكلام لأول وهلة ، أو يساءُ الظنُّ بقائله ، ولكنى آتى بالدليل عليه من واقع حياة المعترضين أنفسهم ، فأقول : هل واقع حياتكم مثل واقع رجل قد ألقى بنفسه فى المخاضة ، لا يلوى على شيء

(١) ومن أقيستهم نظير هذا قولهم : إن مثله مثل شخص قد جُرح جرحًا بليغًا فجعل الدم ينزف منه بغزارة ، فأتاه من يُطَبِّبه بإعطائه دواءً مُسَكِّنًا للصُّداع غير ملتفت إلى النزيف الذى يهدد حياته .

لينقذ غريقًا يصارع الأمواج ويوشك على الغرق ؟ وهل هو واقع قوم أتاهم النذير ، ونودى فيهم بالنفير العام ؟

لماذا إذن تحيون حياة رتيبة هنيئة تتمتعون فيها بالحاجيات بل الكماليات والتحسينيات ، تطعمون الفواكه ، وتتنعمون فى الفرش ، وتتنزهون فى المتنزهات ، وكل هذا لا يُنْكَرُ عليكم ، ولا تستنكرونه من غيركم قائلين : « إن الإسلام مُهَدَّدٌ فى وجوده ، والمسلمين مضطهدون ، وأنتم تأكلون الفواكه ، وتتنعمون بالفرش ، وتتنزهون فى المتنزهات » !

فلماذا إذًا تضعون العوائق فى طريق السنة ، وتضربون لها الأمثال ، وترهقون عقولكم فى استخراج أمثال هذه الأقيسة العقلية الفاسدة ، أفكانت سنة رسول الله ﷺ أهون عليكم من هذه التفاهات الدنيوية ؟!

أفلا يردعكم عن هذا التثبيط قولُ رسولِ الله ﷺ : « بَلِّغوا عنى ولو آية »[(١)]، ولا قوله ﷺ : « نَضَّرَ الله امرءًا سمع منا حديثًا ، فحفظه حتى يبلغه غيره »[(٢)] الحديث ، ولا قول أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : « دعوا السنة تمضى ، لا تعرضوا لها بالرأى » ؟!

ولا قول سفيان : « استوصوا بأهل السنة خيرًا ، فإنهم غرباء » .

ولماذا لا تصرفون جهدكم إلى محاربة المعاندين للسنة المجادلين بغير الحق عن البدع ؟ لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلًا هو أصدق من قياساتكم

---

(١) رواه من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما البخارى (٦/٣٦١) فى الأنبياء : باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، والترمذى رقم (٢٦٧١) فى العلم : باب ما جاء فى الحديث عن بنى إسرائيل .

(٢) رواه من حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه الترمذى رقم (٢٦٥٨) فى العلم : باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وأبو داود رقم (٣٦٦٠) فى العلم : باب فضل نشر العلم ، وابن ماجه (١/١٠٢) ، والدارمى (١/٧٥) ، والإمام أحمد (١/٤٣٧) ، (٥/١٨٣) .

الفاسدة حين قال : « مَثَلُ القائم على حدود الله ، والمُدْهِنِ فيها ، كمثل قومٍ استهموا على سفينة فى البحر ، فأصاب بعضُهم أعلاها ، وأصاب بعضُهم أسفلَها ، فكان الذين فى أسفلِها إذا استقَوْا من الماء مَرُّوا على من فوقَهم ، فقال الذين فى أعلاها : لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا ، فقالوا : « لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذِ مَن فوقنا ؟ » ، فإن يتركوهم وما أرادوا ؛ هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا »[1].

فالسكوت على المنكرات سواء فى فروع أو أصول ، ظاهر أو باطن سبب من أسباب نزول العقوبات العامة وعموم الفتنة والعذاب .



(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما : البخارى (٩٤/٥) فى الشركة : باب هل يقرع فى القسمة ؟ وفى الشهادات : باب القرعة فى المشكلات ، والترمذى رقم (٢١٧٤) فى الفتن : باب ما جاء فى تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب ، وكذا أخرجه الإمام أحمد (٢٦٨/٤ - ٢٧٠) .

❂ هذه هى القشور ! ❂

إن الدين لُبٌّ كله ليس فيه قشور ، إنما القشور ما أحدثه الناس من القيم والأعراف والموازين الشكلية الكاذبة التى صارت تتحكم فيهم وتستعبدهم ، وصاروا ينقادون لها كأنها شرع منزل ، وإن جهد الدعاة ينبغى أن يُوَجَّهَ لإبطال هذه العادات والتقاليد « القشرية » الجوفاء ، وهاك بعضًا منها على سبيل المثال :

❋ فمنها: ظاهرة «**التطوس**» فى المظاهر القشرية الكاذبة، فترى أحدهم يتزين ويتأنق فى مظهره ، ويفعل فى نفسه ما تفعله الماشطة بعروسها ، ويغلو فى ذلك إلى حد الرعونة ؛ نعم صح عن النبى ﷺ أنه قال : (« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرَّة من كِبْر »، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنة ؟ قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكِبْر : بَطَرُ الحق[1]، وغَمْطُ الناس »)[2].

ونعم صح عنه ﷺ أنه قال : « من كان له شعر ؛ فليُكرمه »[3]، وصح عنه ﷺ أنه قال : « من كان له مال ، فَلْيُرَ عليه أثَرُه »[4]، وعن جابر رضى الله عنه قال : (أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلًا شَعِثًا قد تفرق

---

(١) أى دفع الحق .

(٢) رواه مسلم رقم (٩١) فى الإيمان : باب تحريم الكبر وبيانه ، وأبو دواد رقم (٤٠٩١) ، والترمذى رقم (١٩٩٩) .

(٣) رواه أبو دواد رقم (٤١٦٣) ، والطحاوى فى « المشكل » (٤/٣٢١) ، وحسنه الحافظ فى « الفتح » (١٠/٣١٠) .

(٤) رواه الطبرانى فى « الكبير » (٨/٣١) ، وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع » رقم (٦٣٧٠) .

شعره ، فقال : « أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره » ؟ ورأى رجلًا عليه ثياب وَسِخَة فقال : « أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه ؟ »[1].

لكن ينبغى أن لا يواظب على دهن شعر رأسه وتسريحه عاكفًا أمام المرآة حتى يكون مظهره شغله الشاغل فقد (نهى رسول الله ﷺ عن الإرفاه)[2]، و (نهى ﷺ عن الترجُّل إلا غِبًّا)[3].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كُلْ ما شئت ، وألبس ما شئت ، ما أخطأَتْكَ اثنتان : سَرَفٌ ، ومَخِيلة »[4].

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إياى والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين »[5].

---

(١) وروى الطرف الأول منه النسائى (١٨٣/٨ ، ١٨٤) فى الزينة ، باب تسكين الشعر ، وقال النووى رحمه الله: (رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم) اهـ من « المجموع » (٣٠٦/٤) .

(٢) أخرجه النسائى (١٨٥/٨) فى الزينة ، باب الترجل ، ورواه أيضًا أبو دواد بأطول منه رقم (٤١٦٠) فى أول كتاب الترجل ، وانظر : « مرقاة المفاتيح » (٤٦٦/٤) ، و « شرح السنة » (٨٣/١٢ ، ٨٤) ، والإرفاه هنا : الترجل كل يوم ، وكثرة التدهن والتنعم ، وأصله : التوسع فى المشرب والمطعم ، ولين العيش .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٨٦/٤)، وأبو دواد رقم (٤١٥٩) فى الترجل ، والترمذى رقم (١٧٥٦) فى اللباس ، باب ما جاء فى النهى عن الترجل إلا غبًّا ، وقال : « حديث حسن صحيح » (٣٢٦/١) ، والنسائى (١٣٢/٨) فى الزينة ، باب الترجل غبًّا ، وابن حبان (١٤٨٠) وانظر : « شرح السنة » (٨٣/١٢) ، « مرقاة المفاتيح » (٤٦٥/٤) ، « فيض القدير » (٣١١/٦ ، ٣١٢) ، (غِبًّا) : بكسر المعجمة وتشديد الباء : أن يفعل يومًا ويترك يومًا ، والمراد : كراهة المداومة عليه ، وخصوصية الفعل يومًا والترك يومًا غير مراد – قاله السندى فى حاشيته على النسائى .

(٤) أخرجه البخارى تعليقًا (٢١٦/١٠) فى اللباس : فى فاتحته ، ووصله ابن أبى شيبة فى « المصنف » (٢١٧/٨) رقم (٤٩٣٠)، وعبد الرزاق فى « مصنفه » (٢٧٠/١١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٤٣/٥ ، ٢٤٤) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (١٢٥/٣) ، وفيه بقية بن الوليد مدلس ، وقد عنعنه فى رواية أحمد ، وصرح بالتحديث عند أبى نعيم ، فثبت الحديث .

وبين ﷺ أن من علامات الحياء من الله والرغبة فى الآخرة الإعراض عن زينة الدنيا :

فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله تعالى حق الحياء ، مَن استحيا من الله حق الحياء ؛ فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة ؛ ترك زينة الحياة الدنيا ؛ فمن فعل ذلك ؛ فقد استحيا من الله حقَّ الحياء »[(١)]

وندبنا إلى التواضع فى المظهر ، ووعدنا عليه الأجر والكرامة : فعن معاذ بن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « من ترك اللباسَ تواضعًا لله وهو يقدر عليه ؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يُخَيِّره من أيِّ حلل الإيمان شاء يلبسها »[(٢)]

وعلَّمنا أن قيمة الرجال بجوهرهم لا بمظهرهم ، بأعمالهم لا بأسمالهم : فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ، مدفوعٍ بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرَّه »[(٣)]

وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن النبى ﷺ مَرَّ عليه رجل ، فقال : « ما تقولون فى هذا ؟ » ، قالوا : « حريٌّ إن خطب أن يُنكَح ، وإن شفع أن يُشَفَّعَ ، وإن قال أن يُستَمَعَ » ، ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال ﷺ : « ما تقولون فى هذا ؟ » ، قالوا : « حريٌّ إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يُشَفَّعَ وإن قال أن لا يُسْتَمَعَ » فقال رسول الله ﷺ : « هذا خير من ملء الأرض مثلَ هذا »[(٤)].

---

(١) رواه الإمام أحمد فى « المسند » ، والترمذى ، وغيرهما ، وانظر : « صحيح الجامع » رقم (٩٤٨) .

(٢) رواه الترمذى وغيره ، انظر : « صحيح الجامع » رقم (٦٠٢١) .

(٣) رواه الإمام أحمد فى « مسنده » ، ومسلم فى « صحيحه » فى البر والصلة والأدب : باب فضل الضعفاء والخاملين .

(٤) رواه البخارى رقم (٥٠٩١) فى النكاح : باب الأكفاء فى الدين .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهر بن حرام ، وكان يُهدى للنبى ﷺ الهدية من البادية ، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج ، فقال النبى ﷺ : « إن زاهرًا باديتنا ، ونحن حاضروه »[1]، قال : وكان النبى ﷺ يحبه ، وكان دميمًا[2]، فأتاه النبى ﷺ يومًا ، وهو يبيع متاعه ، فاحتضنه من خلفه ، وهو لا يبصره ، فقال : « أَرْسِلنى ! مَنْ هذا ؟ » ، فالتفت فعرف النبى ﷺ ، فجعل لا يألو ما ألزق ظهره بصدر النبى ﷺ حين عرفه ، وجعل النبى ﷺ يقول : « من يشترى العبد ؟ » ، فقال : « يا رسول الله إذًا والله تجدنى كاسدًا »[3]، فقال النبى ﷺ : « لكن عند الله لست بكاسد » أو قال : « لكن عند الله أنت غالٍ »[4]. وفيه مواساة الفقراء ، وعدم الالتفات إلى صور الناس لأن العبرة بالقلوب والأعمال .

وهكذا تَعَلَّم منه الأصحابُ رضى الله عنهم ، الذين هم أولوا الألباب :

فعن عبد الله بن شقيق قال :

(كان رجل من أصحاب النبى ﷺ عاملًا بمصر ، فأتاه رجل من أصحابه ، وهو شَعِثُ[5] الرأس مُشْعان[6]، قال : ما لى أراك مُشْعَانًا وأنت أمير ؟! قال : كان ينهانا عن الإرفاه ، قلنا : ما الإرفاه ؟ قال : « الترجُّل كل يوم »)[7].

وفى طريق أخرى عن يزيد بن هارون عن الجريرى عن عبد الله بن بريدة :

(١) أى أننا نستفيد منه ما يستفيد الرجل من باديته من أنواع النباتات ، ونحن حاضرو المدينة وُنعدُّ له ما يحتاج إليه فى باديته من البلد .

(٢) الدميم : قبيح الوجه .

(٣) كاسدًا : من الكساد ، وهو العطل والبوار .

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٣/١٦١) ، والبغوى (١٣/١٨١) ، والترمذى فى « الشمائل » (٢٣٩) وغيرهما ، وصححه الحافظ فى « الإصابة » (١/٥٤٢) .

(٥) أى : متفرِّق الشعر .

(٦) هو منتفش الشعر ، ثائر الرأس .

(٧) رواه النسائى ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » (٥٠٣) .

(أن رجلًا من أصحاب النبى ﷺ رَحَل إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر ، فَقَدِمَ عليه وهو يَمُدُّ ناقةً له ، فقال : إنى لم آتك زائرًا ، وإنما أتيتُك لحديثٍ بَلَغَنى عن رسول الله ﷺ رَجَوْتُ أن يكون عندك فيه علمٌ ، فرآه شَعِثًا ، فقال : « ما لى أراك شَعِثًا وأنت أمير البلد ؟ » ، قال : « إن رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه » ، ورآه حافيًا ، فقال : « ما لى أراك حافيًا ؟ » قال : « إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نحتفى أحيانًا »)[1].

وهذا ربعي بن عامر يرسله سعد رضى الله عنه قبل القادسية رسولًا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مَجلسه بالنمارق والزرابى الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلى الثمينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : « ضع سلاحك » ، فقال : « إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت » ، فقال رستم : « ائذنوا له » ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ، فقالوا له : « ما جاء بكم ؟ » ، فقال : (**الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**)[2]، فسلام الله على تلك النفوس التى أعاد الإسلام صياغتها ، فتخلت عن القشور الكاذبة ، وأمعنت فى التحلى بمعالى الأمور[3].

وعن ابن شهاب قال : « خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الشام

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » (٤/٢).

(٢) « البداية والنهاية » (٣٩/٧).

(٣) وما حديث «مصعب الخير»، وعمر بن عبد العزيز منا ببعيد، انظر: «مصعب بن عمير الداعية المجاهد» للأستاذ محمد حسن بريغش ، و« البداية والنهاية » (١٩٢/٩-٢١٢).

ومعنا أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة ، فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين أأنت تفعل هذا ؟! تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك ، وتأخذ بزمام ناقتك ، وتخوض بها المخاضة ؟ ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك»، فقال عمر: «أَوَّه لو يقل ذا غيرُك أبا عبيدة جعلته نكالًا لأمة محمد ﷺ ! ،

إنا كنا أذلَّ قومٍ فَأَعزَّنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العِزَّ بغير ما أعزنا الله به ؛ أذلنا الله » .

وفى رواية : (يا أمير المؤمنين ، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه ، فقال عمر : **إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ؛ فلن نبتغى العز بغيره**)[1] .

ودخل أعرابى رَثُّ الهيئة بالى العباءة على أحد الخلفاء ، فاقتحمته عينهُ ، فعرف الأعرابى ذلك فى وجهه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ؟ إن العباءة لا تكلمك ، ولكن يكلمك مَن فيها ، فأدناه ، فإذا به مِدْرَهُ[2] فصاحة فى القول وبلاغة ، فجعله من خاصته » .

وقال الشافعى رحمه الله :

عَلَيَّ ثيابٌ لو يُباعُ جميعُها بفِلْسٍ لكان الفِلْسُ منهن أكثرا
وفيهن نفسٌ لو تُقاسُ بمثلها نفوسُ الورى[3] كانت أَعَزَّ وأكبرا
وما ضرَّ نَصْلَ السيفِ إخْلاقُ غِمْدِه[4] إذا كان عَضْبًا[5] حيث وجَّهْتَهُ فَرَى[6]

(١) رواه الحاكم (١/٦١ ، ٦٢) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبى ، وقال الألبانى فى « الصحيحة » رقم (٥١) : « وهو كما قالا » .
(٢) المِدْرَهُ : السيد الشريف ، والمُقْدِمُ عند الخصومة والقتال .
(٣) الورى : الخَلْق .
(٤) إخْلاقُ غِمْده : يقال خَلَق الجلدُ إذا بَلِىَ ، والغِمْد : جَفْن السيف وغلافه .
(٥) العَضْبُ : السيف ، يقال : عَضُب السيف : إذا صار قاطعًا حادًّا .
(٦) فَرَى : شَقَّ ، وفَتَّت .

ويقول الشاعر المخضرم العباس بن مرداس(*) فى هذا المعنى :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ
وفى أَثوابِــهِ أَسَدٌ مزيــــرُ[1]
ويُعْجِــبُكَ الطَّريــرُ[2] فتبْتَلِيــهِ
فيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيْرُ
فَمَا عِظَمُ الرِّجَالِ لَهُمْ بِفَخْرٍ
ولكِنْ فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وخيــرُ
بُغَاثُ[3] الطَّيْرِ أَكْثَرُها فِراخًـا
وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ[4] نَزُورُ[5]
ضِعَافُ الطَّيْرِ أَطْوَلُها جُسومًا
ولَمْ تَطُلِ البُزاةُ ولا الصُّقُورُ
لَقَدْ عَظُمَ البَعيرُ بغَيْرِ لُبٍّ
فَلَمْ يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البَعِيْــرُ
يُصَرِّفُهُ الصَّغِيْرُ بكُلِّ وَجْــهٍ
ويَحْبِسُهُ عَلى الخَسْفِ[6] الجَرِيرُ[7]

(*) أمه الخنساء الشاعرة ، أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم قبيل فتح مكة ، وكان من المؤلفة قلوبهم « الأعلام » (٢٦٧/٣) .

(١) العاقل الحازم ، يقال : مَزُرَ الرجل مَزارةً : اشتد قلبه وقوى ، مزر التمر : استحكم ، فهو مزير .

(٢) ذو المنظر والرُّواء والهيئة الحسنة .

(٣) ما لا يصيد منه .

(٤) التى لا يعيش لها ولد ، أو التى تضع واحدًا ثم لا تحمل .

(٥) من النَّزر ، وهو القليل .

(٦) الذل .

(٧) الحبل .

وتَضْرِبُهُ الوَلِيْدَةُ بِالهَـرَاوِى[1]
فَلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولَا نَكيـرُ
فإنْ أَكُ فى شِرارِكُمْ قَليلًا
فإنِّـى فى خِيارِكُـمُ كَثيـرُ[2]

(كان الإمام النووى رحمه الله إذا رآه الرائى ظنه شيخًا من فقراء سكان القرى ، فلا يأبه له ، ولا يخيل إليه أنه شئ يُذكر ، فإذا سمعه يُدَرِّس أو يقرر أو يحدِّث فغر فاه ، وحملق بعينيه عجبًا من هذه الأسمال أن تنكشف عن جوهر نفيس ، وعبقرية نادرة فى العلم والزهد والتقوى ، ولا عجب فالتراب مكمن الذهب ، ولكن الناس فى كل زمان ومكان يغرهم حسن الهيئة ، وجمال الهندام ، فإذا رأَوْا مَن هذه صفته ؛ وقَّروه ، وعظموه قبل أن يعرفوا ما وراء هذه البزة ، وقد يكون فيها نخاع ضامر ، وفكر بائر ، وقلب حائر .

تَرَوْنَ بلوغَ المجدِ أن ثيابَكم ... يلوحُ عليها حسنُها وبَصيصُها
وليس العُلَى دَرَّاعة ورداءها ... ولا جبة موشية وقميصها[3])

❋ ❋ ❋

ليـس الجمـالُ بمئـزرٍ ... فاعلـم وإن رُدِّيـتَ بُـرْدا
إن الجمـال معـادنٌ ... ومحاسـنٌ أورثـن مجـدا

فما بال القوم قد ابتغوا العزة فى رباط العنق ، وكِّى الملابس ، وأهدروا أموالهم فى مظاهر قشرية جوفاء ، وإذا ندبت أحدهم إلى الاعتدال انطلق كالصاروخ يسرد لك ما أسعفه من الحجج والمعاذير ، فى حين أنه بمجرد رؤيته من يتمسك بالسنة وبهدى النبى ﷺ مثلًا فى ارتداء القميص[4] ،

---

(١) جمع هراوة ، وهى العصا .
(٢) نقلًا من « المظهرية الجوفاء » ص (٤٠ – ٤١) .
(٣) « الإمام النووى » لعبد الغنى الدقر ص (٧) .
(٤) وقد صح عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص » ، رواه الترمذى ، وأبو داود ، والحاكم ، وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٤/١٩٧) .

والعمامة ، والتزام التسوك أو غير ذلك إذا به يشمئز ، ويقول : « هذه شكليات وهذه قشور ، لا ينبغى الاشتغال بها » فإذا كانت قشورًا لماذا شغلت نفسك بها ؟ وهذا الملتزم بالهدى الظاهر لم يوجبها عليك فضلًا عن أن يحثك عليها ، ولو فعل فقد أحسن .

☼ مفارقات عجيبة[1] ☼

ترى بعضهم إذا لمح من إمام الصلاة المتمسك بالسنة اهتمامه الشديد بتسوية صفوف الصلاة ورَصِّها أسوةً بالنبى ﷺ والسلف الصالح ، قالوا : هذه شكليات وقشور ، بينما تراهم يهتمون أيما اهتمام بتسوية الصفوف وتراصها فى الحفلات والاستقبالات ، والمدارس والمعسكرات ، إلخ ، ويقولون : الإسلام دين النظام والانضباط .

وإذا جاء الفقير الدَّيِّنُ الحسن الخُلُق إلى أحدهم يخطب ابنته تمسك بالظاهر ، وتشبث بالقشر ، وأهمل الجوهر ، واعتبر المظهر ، وعقَّد الأمور ، وغالى فى المهور ، وإذا تورع عن المغالاة فى المهر ، وقنع باليسير ، طلب أن يظهروا أمام الناس أن مهر ابنته كذا وكذا .

● أما القشور فى المآتم فحدث ولا حرج عما يقع بسببها من المكروهات والمآثم ، إنهم يتباهون بحسن أكفان الموتى ، مع أن الحى أولى بالجديد من الميت ، وبفخامة البنيان المشيَّد فوق القبور ، مع ما فى ذلك من المخالفة الصريحة لنهى النبى ﷺ عن البناء فوقها .

وإذا كان للميت أقارب من مدن أخرى ، تتحول دار أهل الميت إلى فندق ومطعم يستقبل أفواجًا من المعزِّين تقيم الأيام والليالى ، ويُستنفر أهل الميت لخدمتهم وتأمين حاجياتهم[2]، وحدث ولا حرج عن تكاليف السرداقات

---

(١) انظر : « المظهرية الجوفاء وأثرها فى دمار الأمة » للأخ المفضال حسين العوايشة وفقه الله .

(٢) علمًا بأن السنة هى أن يصنع جيران أهل الميت لهم الطعام ، فقد قال ﷺ بعد =

واستئجار المقرئين والتباهى بالمشاهير منهم ، وربما استدانوا لأجل هذه المظهرية ، أو كلفوها من أموال اليتامى القاصرين ظلمًا وعدوانًا :

ثلاثــةٌ تَشْقَى بِهِــنَّ الــدَّارُ   العُــرْسُ والمأْتَـم ثُـمَّ الزَّارُ

في سبيل التطوس

وفى سبيل التطوس ، والمظهرية الفارغة يضحى بعضهم بالنفس والنفيس ، وربما أشغل ذمته بالدَّين ، فأركبه الهم والذلَّ فى النهار ، وأرَّقه فى الليل :

● إذا فرح بذَّر فى نفقات الإضاءة ، وأسرف فى الولائم ، مجاراةً للتقاليد الآسرة ، ومباراةً للأغنياء والوجهاء ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ﷺ : « المتباريان لا يُجابان، ولا يؤكَلُ طعامُهما »[1].

وعنه رضى الله عنه أيضًا : قال ﷺ : « شَرُّ الطعام طعامُ الوليمة، يُمْنَعُها من يأتيها، وُيْدعَى إليها من يأباها، ومن لا يجب الدعوة، فقد عصى الله ورسوله »[2].

وعن جابر رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطانَ يَحْضرُ أحدَكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة؛ فليُمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلْها، ولا يَدَعْها للشيطان» الحديث[3].

فكيف بمن يُطعم الشيطان ما لذ وطاب من أصناف المأكولات ؟!

وكيف بمن ينبذ فى القمامة أكوامًا من الطعام تبكيها أفواه محرومة ، وبطون خاوية ؟ ويلقى فى المزبلة بقايا الولائم فى حين يغلى قلبه حسرة على ما ركبه من ذل الدَّيْن وهمه فى سبيل « القشور » الفارغة ؟!

= استشهاد جعفر رضى الله عنه : « اصنعوا لآل جعفر طعامًا ؛ فإنه قد أتاهم ما يَشْغَلُهم » رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع » رقم (١٠٢٦) .

(١) رواه البيهقى فى « شعب الإيمان » رقم (٦٠٦٨) ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (٦٢٧) .

(٢) رواه مسلم (١٠٥٥/٢) .

(٣) رواه مسلم (١٦٠٧/٣) .

ومن مظاهر استعباد « القشور » كثيرًا من المسلمين :

زخرفة المساجد، وإنفاق الأموال الطائلة فى تزويقها وتشييدها ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا زخرفتم مساجدَكم ، وحلَّيتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم »[1] وعن أنس رضى الله عنه قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد »[2]، (وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ : « ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد »[3]، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى »[4]) .

---

(١) رواه ابن المبارك فى « الزهد » رقم (٧٩٧) عن أبى الدرداء رضى الله عنه موقوفًا ، ورواه الحكيم الترمذى عنه مرفوعًا ، وحسنه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (١٣٥١) .

(٢) رواه أبو داود (٤٤٩) ، والنسائى (٢/٣٢) ، وابن ماجه (٧٣٩) ، وابن حبان (٣/١٠٤) ، وأحمد (٣/١٣٤) ، والدارمى (١/٣٢٦) ، والبغوى (٢/٣٥٠) ، وصححه فى « صحيح الجامع » رقم (٧٤٢١) .

قال الصنعانى رحمه الله تعالى : (والحديث من أعلام النبوة ، والتباهى إما بالقول بأن يقول واحد : « مسجدى أحسن من مسجد .. » علوًّا وزينة وغير ذلك ، أو بالفعل كأن يبالغ كل واحد فى تزيين مسجده ورفع بنائه وغير ذلك ، وفيه دلالة مفهمة بكراهة ذلك ، وأنه من أشراط الساعة ، وأن الله لا يحب تشييد المساجد ولا عمارتها إلا بالطاعة) اهـ . من « سبل السلام » (١/١٥٨) .

(٣) التشييد : رفع البناء وتطويله ، قال المناوى رحمه الله : (أى ما أُمِرْتُ برفع بنائها ليجعل ذريعة إلى الزخرفة والتزيين الذى هو من فعل أهل الكتاب ، وفيه نوع توبيخ وتأنيب) اهـ . من « فيض القدير » (٥/٤٣٦) ، وقال الصنعانى رحمه الله : (.. ليس المقصود من بناء المساجد إلا أن تُكِنَّ الناس من الحر والبرد ، وتزيينها يشغل القلوب عن الخشوع الذى هو روح جسم العبادة) اهـ.، وقال أيضًا : (وقوله ﷺ : « ما أُمِرْتُ » إشعار بأنه لا يحسن ذلك ، فإنه لو كان حسنًا لأمره الله به) اهـ . من « السبل » (١/٢٦٥) .

(٤) رواه أبو داود (٤٤٨) ، والبغوى فى « شرح السنة » (٣٤٨٢) ، وقال فى « تحقيق المشكاة » (٧١٩) : « سنده صحيح » . .

وأَمَر عمر رضى الله عنه ببناء المسجد ، وقال : « أَكِنَّ[1] الناسَ من المطر ، وإيَّاك أن تُحَمِّرَ أو تُصَفِّرَ فتفتنَ الناس »[2].

وقال أنس رضى الله عنه : « يأتى على الناس زمان يتباهَوْن بالمساجد ، ثم لا يعمرونها إلا قليلًا »[3].

وعن الحسن قال : (لما بنى رسول الله ﷺ المسجد ، أعانه عليه أصحابه ، وهو يتناول اللَّبِن ، حتى اغبرَّ صدرُه ، فقال : « ابنوه عريشًا كعريش موسى »[4]، فقيل للحسن : « وما عريش موسى ؟ » قال : « إذا رفع يده بَلَغَ العريش » يعنى السقف .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه : (أن الأنصار جمعوا مالًا ، فَأَتَوْا به النبىَّ ﷺ ، فقالوا : « يا رسول الله ابْنِ هذا المسجدَ ، وزَيِّنْهُ ، إلى متى تصلى تحت هذا الجريد ؟ » ، فقال : « ما بى رغبة عن أخى موسى ، عريش كعريش موسى »)[5].

إن انصراف القوم إلى الاهتمام بهذه « القشور » يعكس أنهم يعتاضون عن جمال العقيدة بجمال الجدران والزخارف ، وعن نور الإيمان بأضواء الثريات ، فيتلهى المصلون بتأملهم فى سجوف المنافذ ، وإبداع المنابر ، ونقوش الجدران والسقف والمحاريب عن الخشوع الذى هو روح العبادة .

---

(١) أى : اجعل المسجد على صفة تصونهم من المطر، من أكننت الشىء: إذا صُنْتَه، وسترته.

(٢) رواه البخارى تعليقًا (٥٣٩/١ – فتح) ، قال المناوى رحمه الله : (وقد كان عمر – مع كثرة الفتوح فى أيامه ، وَسَعَة المال عنده لم يُغَيِّر المسجد عما كان عليه) اهـ . من « الفيض » (٤٢٦/٥) .

(٣) أخرجه أبو يعلى ، وابن خزيمة فى « صحيحه » ، وأخرجه مختصرًا أبو داود ، والنسائى ، وابن حبان ، وأورده البخارى تعليقًا (٥٣٩/١ – فتح) .

(٤) عزاه الألبانى فى « الصحيحة » إلى ابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » ، وقال : (هو مرسل صحيح) ، ويشهد له الحديث التالى .

(٥) رواه ابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » كما فى « الصحيحة » ، وحسنه الألبانى لغيره .

وكان من شؤم هذه الزخارف فتح الباب للسياح الأجانب كى ينتهكوا حرمة المساجد بالكاميرات ، وفى أوضاع مخلة لمشاهدة القشور التى يسمونها الفنون المعمارية ، والزخارف العربية » !

ومن الاهتمام المذموم بالقشور : تحلية المصاحب بالزخارف ، وتذهيبها ، وحفظها فى عُلَب فخمة من القطيفة أو الجلود أو العاج ، لتزيِّن بها أركان الحجرات والمكاتب والسيارات ، أو التفنن فى كتابة آيات قرآنية كريمة بألوان الخطوط ، وتعليقها فى لوحات بقصد الزينة ، أو حفرها فى قطع ذهبية تعلقها النساء بقصد التزين ، أو جمع المصحف كله فى لوحة واحدة بخط بالغ الدقة لا يقرأ ولو بعدسة مكبرة لتزين بها المجالس ، لا ليُقرأ ويتعبد بتلاوته ، لا ليعالجوا به أحوالهم المعوجة ، وأمراضهم المتمكنة ، وإخلالهم بحقوق الله عليهم .

ألا ما أشبه حال القوم بحال (رجل اشتد به المرض ، فأخرج الوصية لابنه الأكبر ، يوصيه بها : أن يعتنى بأمه ، ويترفق بإخوته الصغار ، ويتقى الله تعالى فيما تركه من مال .

مات الأب ، واغرورقت عينا ولده بالدموع ، ورثى لحاله الحاضرون ، ثم أقبل على الوصية ، فقبَّلها ، وتمسَّحَ بها ، وتبرَّك ، ودفع بها إلى خطَّاط لم يُرَ له مثيل ، فخطَّط كل حرف بلون ، وتكلف له مالًا جزيلًا مقابل ذلك ، كى تخرج بصورة جذابة براقة تبهر الناظرين ، ثم دفعها إلى خبير فى الإضاءة كى يسلط الأضواء على الحروف كى تسحر العيون ، وتخلب الألباب ، ثم وضعها فى صدر المجلس ، يقبِّلها صباح مساء ، ويذرف الدموع أمامها على فقد أبيه .

يسمع الابن أنين أمه العجوز خافتًا ، فلا يلبِّى ، ولا يلتفت ، ويُوسِعُ إخوته الصغار ضربًا ، ويُشْبِعُهم إهانةً ، أما الأموال التى اؤتمن عليها ؛ فقد بسط عليها يده كل البسط ليهدرها فى كل حرام ومشبوه .

وولد آخر أقبل على الوصية دون تقبيل ، ولا تمسُّح ، ولا تبرك ، لم

يزخرفها ، ولم يزينها ، وإنما أقبل على بر أمه ، وخدمها حق الخدمة ، يفرح لفرحها ويرعاها ، ويبكى لبكائها ويواسيها ، يعتنى بإخوته ، ويرحمهم ، ويتابع أحوالهم ، ويقضى حاجاتهم ، ويتلطف بهم فى جميع شئونهم .

أما المال الموروث فقد اعتدل فى إنفاقه ، وثمَّره ، ونمّاه ، وزكَّاه ، وبذل منه فى وجوه البر والخير .

فأيهما أبر بأبيه ، وأقوم بأمره ، وأرعى لعهده ؟

أذلك الذى يتمسح بالوصية ، ويتبرك بها ، ويقبلها ؟ مع أنه يهمل تنفيذها أم ذاك الذى أمضى ما فيها ، وعمل بمقتضاها ؟

وماذا تُغنى الزينة والزخرفة والتقبيل ؛ إذا لم يكن للتنفيذ موضع ؟)[1].

لقد أنزل الله عز وجل كتابه العزيز وأمر بتدبره وتفهمه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فُصِّلَتْ آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون * بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾[3] وقال جل وعلا : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[4].

وتوعَّد سبحانه من أعرض عن كتابه العزيز فقال : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكًا * ونحشره يوم القيامة أعمى قال رَبِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيرًا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك**

---

(١) « المظهرية الجوفاء وأثرها فى دمار الأمة » للأستاذ حسين العوايشة ص (٨٠ – ٨١) بتصرف .

(٢) (فصلت : ١ : ٤) .

(٣) (ص : ٢٩) .

(٤) (القتال : ٢٤) .

اليوم تُنْسَى ﴾[1]، وقال جل وعلا : ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكرًا * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وِزرًا * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حِمْلًا ﴾[2]، وقال سبحانه : ﴿ ومن أظلم ممن ذُكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾[3] ، وقال سبحانه : ﴿ ومن يُعْرِضْ عن ذكر ربه يَسْلُكْه عذابًا صَعَدًا ﴾[4].

* * *

(١) (طه : ١٢٤ – ١٢٦) .

(٢) (طه : ٩٩ – ١٠١) .

(٣) (السجدة : ٢٢) .

(٤) (الجن : ١٧) .

۞ معالى الأمور .. لا قشور ۞

ثبت عن الحسين بن عليٍّ رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يحب مَعالى الأمور وأشرافها ، ويكره سَفسافها »[1].

أما معالى الأمور فهى الأخلاق الشرعية ، والخصال الدينية ، لا الأمور الدنيوية فإن العُلُوَّ فيها نزول[2].

وأما السَّفاسِف فواحدها السَّفْساف : الأمر الحقير ، والردىء من كل شىء، وهو ضد المعالى والمكارم ، وأصلُه : ما يطير من غُبار الدقيق إذا نُخِل ، والتراب إذا أُثير .

والسَّفساف من الشِّعْر : رَدِيئُه ، وأَسَفَّ : تتبع مَدَاقَّ الأمور ، وطلب الأمور الدنيئة[3].

واعلم – رحمك الله – أن ما نطق به النبى ﷺ فى أمور الدين ﴿ **إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ وأن كل ما تعرض له بأمر أو نهى فهو من معالى الأمور ، وأن من وصف شيئًا من ذلك بوصف يوهم الإزراء أو التنقص فقد أعظم على الله عز وجل الفرية ، وَعرَّض نفسه لغضب الله وعقوبته وانتقامه ، نعم هناك فى قضايا الدين أصول وفروع ، كليات وجزئيات ، أهم ومهم ، لكن هذه القضايا كلَّها على اختلاف مراتبها وأولويتها من المعالى ليست من السفاسف فى شىء، فَمِن ثَمَّ اشتد نكير العلماء على من أطلق

---

(١) رواه الطبرانى (٣/١٤٢) ، وابن عدى (٣/٨٧٩) ، وغيرهما ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (١٦٢٧) .

(٢) « فيض القدير » (٢/٢٩٥) .

(٣) « النهاية فى غريب الحديث » (٢/٣٧٣ – ٣٧٤) ، « مختار القاموس » ص (٣٠٢) .

مثل هذه العبارات الفَجَّة ، وأَفْتَوْا بزجره وتأديبه :

فقد سئل سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى :

هل يجوز أن يقول المكلف : « إن الشرع قِشرٌ ، علم الحقيقة لُبُّه » ، أم لا يجوز ؟

فأجاب رحمه الله تعالى :

(لا يجوز التعبير على الشريعة بأنها قشر من كثرة ما فيها من المنافع والخير ، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشرًا ، وأن العلم الملقب بعلم الحقيقة جزء ومن أجزاء علم الشريعة ؟! ولا يُطْلِق مثلَ هذه الألقاب إلا غَبيٌّ شَقِيٌّ قليلُ الأدب ! ولو قيل لأحدهم : « إن كلام شيخك قشور » ، لأنكر ذلك غاية الإنكار ، وَيُطْلِقُ لفظَ القشور على الشريعة ؟!، وليست الشريعة إلا كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ؛ فَيُعَزَّرُ هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب)[1] اهـ .

وقال الإمام العلامة تقى الدين السبكى رحمه الله تعالى : (.. وقولهم : « من أهل القشور » إن أراد به ما الفقهاء عليه من العلم ومعرفة الأحكام ؛ فليس من القشور ، بل من اللُّبِّ ، ومن قال عليه : « إنه من القشور » ؛ استحقَّ الأدب ، والشريعة كلُّها لُباب)[2] اهـ .

---

(١) « فتاوى سلطان العلماء » ص (٢٤ ، ٢٥) تحقيق مصطفى عاشور – مكتبة القرآن .

(٢) ملحق بكتاب « كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء » لابن القيم رحمه الله ص (٢٥) .

فائدة : تصدى العلماء رحمهم الله فى كل عصر لظاهرة التهاون بالهدى الظاهر ، مع التشبث بسمت الكافرين ، ومن أعظم ما ألف فى ذلك : السفر النفيس « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ومنها : « تشبه الخسيس بأهل الخميس » للحافظ الذهبى ، ومنها : « الاستنفار لغزو التشبه بالكفار » للشيخ أحمد بن الصديق ، ومنها : « فرانك مقلد لغى » بالتركية حول تحريم التشبه بالكفار للشيخ عاطف اسكلفى وأفتى فيه بتحريم ارتداء القبعة، ولما قام «أتاتورك» =

بالانقلاب الأثيم حوكم الشيخ عاطف بعد الانقلاب بسنتين لتأليفه هذا الكتاب ، ولما مثل الشيخ أمام القاضى رئيس محكمة الاستقلال خاطبه القاضى قائلًا : (إنكم أيها الشيوخ مغرقون فى السفسطة الفارغة ، رجل يرتدى عمامة يكون مسلمًا ، فإذا ما ارتدى قبعة صار فاسقًا ، وهذه قماش وهذه قماش ؟) فأجابه الشيخ الجليل : (انظر أيها القاضى إلى هذا العلم المرفوع خلفك – أى علم تركيا – استبدله بعلم انكلترا مثلًا ، فإن قبلت ، وإلا فهى سفسطة منك ، إذ هذا قماش وذاك قماش) ، فبهت القاضى ومع ذلك حكم على الشيخ بالإعدام رحمه الله رحمة واسعة ، وأبلغنى شاب تركى روى لى هذه القصة أن ذلك القاضى كان يدعى (عليًّا) وأنه مرض مرضًا شديدًا قبل موته كان يصيح منه (كالكلاب) على حد تعبيره .

ومن المناسب ذكره هنا ما قاله الأستاذ محمد المجذوب : (وما أجمل كلمة أستاذ جامعى لأحد طلابه ، إذ بصر به يعتم البرنيطة فنصحه بخلعها ، ولكن هذا أبى أن يستجيب إلا بحجة مقنعة ، وجاءت الحجة حين قال له أستاذه: (يا بنى : ليست البرنيطة بنفسها شيئًا مذكورًا ، ولكنها شعار القوم الذين أذلوا أمتك ، وسلبوك حريتك) اهـ.من « تأملات فى المرأة والمجتمع » ص (٤٩) .

وقال الشيخ عبد الله بن الصديق : (والبرنيطة شعار خاص بغير المسلمين ، حتى إن أتاتورك لعنه الله ، حين انسلخ من الإسلام ، وأعلن أن تركيا دولة لا دينية ، اتخذ البرنيطة شعارًا يعرفون به أنهم غير مسلمين .

وصرح المالكية بأن اللبس المختص بالكافر كالزُّنَّار والبرنيطة يكون لبسه ردة إن فُعل محبة أو رغبة فيه ، ولما كان الشيخ محمد الخضر حسين شيخًا للأزهر ، فى عهد حكومة الانقلاب الذى قام به جمال ، خيَّبه الله ؛ تركوا الطربوش الذى كان غطاءً للرأس عند جمهور المصريين ، وأرادوا أن يتخذوا البرنيطة بدله ، واستفتوا شيخ الأزهر فى ذلك ، فلم يوافق ، لكنه رأى فى مجلة الشئون الاجتماعية ، أنه وافق على لبس البرنيطة ، فاحتج على رئيس تحرير المجلة ، فقال له : « إنه أُمِر بنشر هذا الخبر » ، فاستقال الشيخ من منصبه ، وكانت الحكومة عازمة على تنفيذ المشروع ، لكن عاقتهم عنه عوامل ، من أهمها استقالة الشيخ فجأة ، وبقى الشعب المصرى من ذلك الوقت ، عارى الرأس ، ترك الطربوش ؛ فلم يرجع إليه ، ووقاه الله لبس البرنيطة ، والحمد لله) اهـ . بحروفه من « دفع الشك والارتياب عن تحريم نساء أهل الكتاب » ص (٢٩) .

☼ الخاتمة ☼

وهكذا أخى المسلم ينبغى أن نذب عن هدى رسول الله ﷺ الذى هو لباب كُلُّه لا قشور ولا نخالة فيه ، ونقول : إنما القشور فيما خالف هديه ، وإنما النخالة فى المبتدعين الذين عظَّموا ما حقَّره ، واستصغروا ما كبَّره ، وأهدروا ما اعتبره ، واعتبروا ما أهدره ، ووضعوا ما رفعه ، ورفعوا ما وضعه ، وليكن لنا أسوةٌ فى الأصحاب رضى الله عنهم أولى الألباب ، الذين لم يعرفوا هذه البدعة المحدثة ، ولم ينقسموا إلى أهل جوهر ولباب ، وأهل قشور ونخالة ، كما زعم أصحاب الجهالة :

دخل عائذ بن عمرٍو - وكان من صالحى أصحاب النبى ﷺ - على الخبيث الجرِّىء عبيد الله بن زياد ، فقال : (إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « شَرُّ الرِّعاء الحُطَمَةُ »[1] فإياك أن تكون منهم ، فقال : اجلس إنما أنت من نُخَالَةِ[2] أصحاب محمد ﷺ ، قال : وهل كانت لهم - أو فيهم - نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم)[3].

وهذا آخر ما تيسر جمعه فى هذا الباب ، ونسأل الله تعالى العصمة من الزلل ، والسدادَ فى القول والعمل ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

☼ ☼ ☼

---

(١) الحطمة : هو من يظلم الرعية ، ولا يرحمهم ، مبالغة الحاطم .

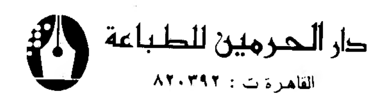
(٢) النُّخَالَةُ: ما نُخِل من الدقيق .

(٣) رواه مسلم فى « الإمارة » ، والإمام أحمد (٥/٦٤) ، والبيهقى (٨/١٦١) .

☼ فهـرس الموضوعـات ☼

الموضوع | الصفحة





دار الحرمين للطباعة
القاهرة ت : ٨٢٠٣٩٢